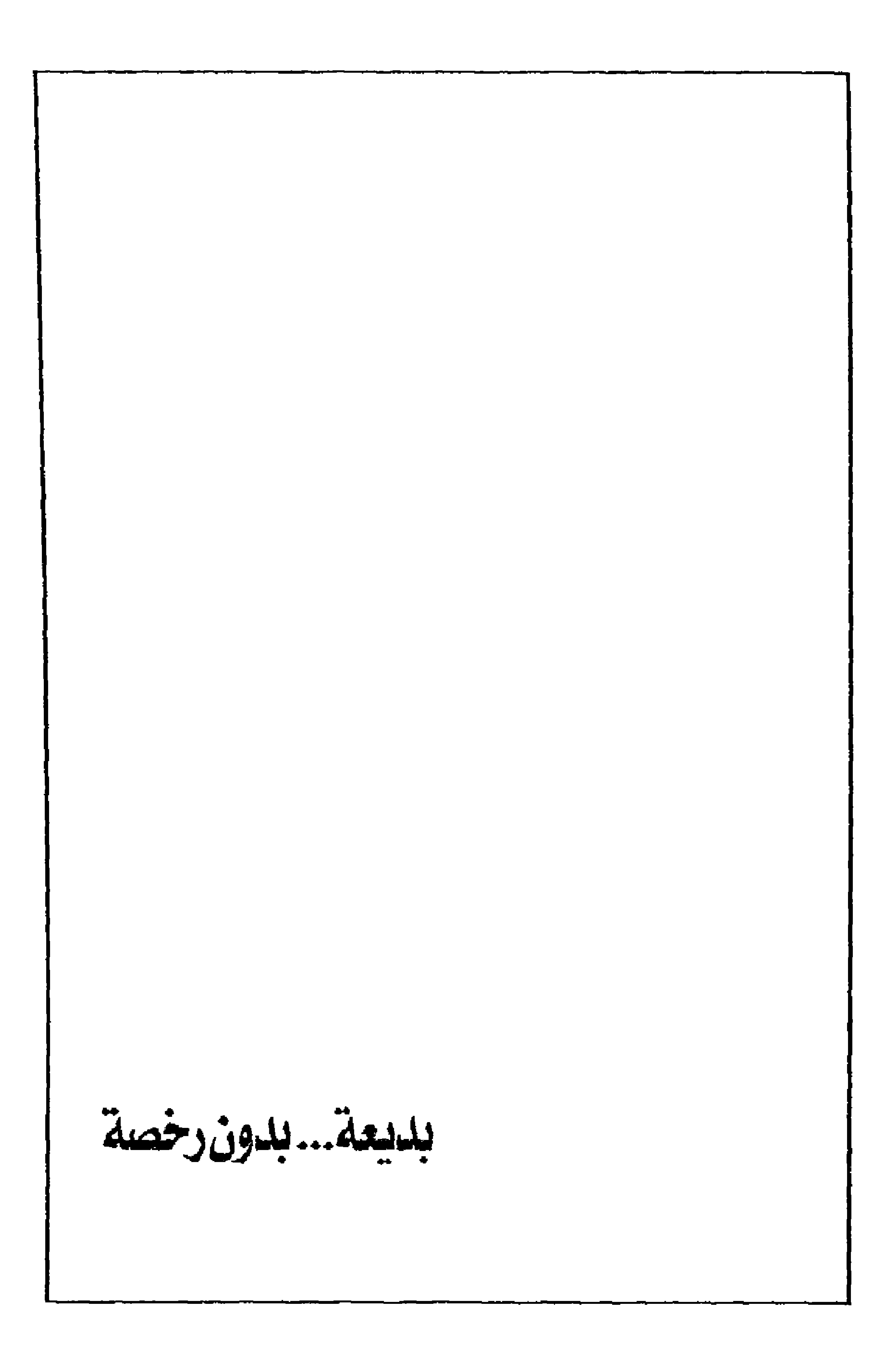

شارع بورسعيد
بديعة ..
بدون رخصة
مصطفى موسى


بديعة... بدون رخصة

بديعة... بدون رخصة

رواية

مصطفى موسى

إهداء

" إلى حبة البندق "

- " يااااه .... فاكرين الست دي"

جملة بدأها محمد، أعقبها عليٌ، عاقداً حاجبيه باشمئزاز

- "ياساتر ..هي لسه عايشة.. الله يقرفها".

اندهش كل من محمود وياسين وراشد الجالسون على مائدة متهالكة، قابعة على الرصيف، لتناول طعام السحور، في شارع بورسعيد بالإسكندرية، هذا الشارع الممتلىء بألوان اجتماعية من كل المستويات الإنسانية، الذين حضروا خصيصاً لمحل ألبان الخواجة المتخصص في بيع اللبن الزبادي في أيام الشهور العادية، وإعداد وجبات السحور من الجبنة المذابة في الزبدة، والفول بالسجق الإسكندراني الشهير، والبيض بالبسطرمة والقشطة بالحلاوة الطحينية والخبز الفينو الساخن في شهر رمضان من كل عام . كل هذه الضجة و السيارات المرتكنة على جانبي الرصيف، التي تُوهم أي شخص قادم من مسافة بعيدة، بوجود كارثة أو حادثة في تلك المنطقة، هي التي أدت الى هذا التكدس، وهذه الظاهرة الغير موجودة إلا في شهر رمضان فقط.

يسأل ياسين عن هذه السيدة التي يراها عندما يدخل محطة البنزين في الشاطبي، ويجدها تتسول وهي تنفث دخان السيجارة المستوردة،

ذات الفلتر الأصفر، الموضوعة بين شفتيها المتجعدتين الحمراوين، وعيناها المكتحلتين والغائرتين داخل محجريهما، والمتدلية أسفلهما ثنيات جلدية منتفخة، ومساحيق التجميل الموضوعة بطريقة تنم عن الاحتراف، في بادىء الأمر اعتقد أنها سيدة مسنة معتوهة لمظهرها الغريب، لتسولها داخل محطة بنزين وهى مشعلة سيجارة. ولكن تعقيب محمد هو ماصحح تلك الفكرة عن السيدة بديعة .... أقدم سيدة امتهنت الدعارة في الإسكندرية... حتى أن علِى طلب من الجارسون إبعادها، لإحساسه بالغثيان منها وهو يتناول طعامه..

– دى لغاية دلوقت شغالة ... الله يقرفها.

*****

– أم محروس الداية جايه الحارة بكره علشان البنات .... تبقى تروحى مع فريال بالمَرة.

قالها عم يوسف العباسى، فراش المدرسة الإبتدائية الوحيدة فى كفر الدوار، لزوجته آمنة المنتصبة أمام مائدة طويلة أسفل شباك ذى قضبان حديدية، المطل على ترعة الصرف فى حارة دُعمص.

– طيب آخد بديعة معايا ياخويا ؟

قالتها آمنة و هى تكسر بيضة فى طاسة بها قطع الطماطم، موضوعة على وابور الجاز أعلى المنضدة.

– شوفى أم محروس هاتقولك إيه .. لو ينفع يبقى نِخْلص من الشوار ده وبلاش وجع دما غ بعد كده.

– طيب شخشخ جيبك.

– آهه .. حتة بنص جنيه بحاله .. بس هى تجيب العدة من عندها.

– طبعا يا خويا .. أمال إيه.

في الصباح الباكر، فى حارة دُعمُص بكفر الدوار .. خرجت النسوة يحملن بناتهن الصغيرات .. فى سن الثامنة والتاسعة متوجهات الى بيت مديحة.

- صباح الخير يا أم حودة.

- صباح الخير يا أم جمال.

يتراشقن الصباح فيما بينهن كانها شتيمة، ونظرات التجسس على أجسادهن و شعورهن المعقوصة بشريط مطاطى كأنهن يبحثن عن حكاية تلكنها قتلاً للوقت.

- شايفة الولية أم طارق .. قال إيه خارجه وشعرها مبلول ....دَه يبقى على راجل لو كان فى حاجة حصلت .. ده جوزها آخره ياكل وينام زى الخروف.

خرجت الكلمات كأنها طلقات رصاص من فم أم فريال، على عكس أم فوزى التى أردفت بتمهل وحيطة ، كمن يخبر سراً ..

-لا و الله يا أم فريال ..ده إمبارح طول الليل و أنا سمعه خبط ورقع وأفاقه طول الليل ... دول ناس ماتختشيش، ولا هى ولا جوزها النطع. هما عارفين إن الحيطة فى الحيطة ولا هَامْمِهم.

- طب خلاص آحسن أهى جاية علينا.

- خِير عليكي يا أم طارق .. برضه أبعتلك طبق ملوخية يا حبيبتى وترجعيلى الطبق مليان رز بلبن.. كلِّفتى نفسك ليه .. هو إحنا بينا الكلام ده !؟

- ده من فضلت خيرك يا أم فريال ...البيت واحد يا حبيبتى.

وبدأ النسوة فى التملق مع مصمصة الشفاه بين الحين والآخر، ولم يَسْكُتن إلا بسماعهن لأم فوزى قائلة:

- أم محروس وصلت أهه.

قالتها أم فوزى وهى تسحب طفلتها الصغيرة التى لم تتجاوز السابعة، متجهة الى أم محروس..

- يا ست يا بركة، شدى حيلك معانا وحياة النبى .. الحارة كلها جايبالك بناتها علشان تطهّريهم.

وأشارت أم محروس بسبابتها الطويلة الى عينيها يميناً ويساراً، وذلك القوام الذكورى الطويل، ونحافة جسدها الذى يدل على حياة طويلة تعدت الستين، ورداؤها الأسود المنسدل على ذلك الجسد، والمنديل ذو الالوان الصارخة يتوج رأسها والذى هربت من أسفله بعض الشعيرات المتجعدة البيضاء قائلة:

- من عينيا الجوز .. بس كل واحدة تجيب الموس بتاعها و صحن دقيق، وجنيه على الراس.

اعترضت أم طارق على أجرة الجنيه قائلة:

- جنيه كتير يا أم محروس .. ده يومية جوزى يا ولية.. وحياة النبى خليها ٥٠ قرش.

انقلبت سحنة أم محروس بطريقة عجيبة حتى ليراها الناظر كهيئة رجل ضلّت معالم وجهه أماكنها، مع صوت شهيق يخرج من منخارها لا يصدر إلا من الرواد الدائمين للسجون ..

- خلاص يا أمه.... خدى بتْك وروحى ... بس تربيها كويس علشان ما تلقّطْش فى الشوارع لما تكبر.

قالتها أم محروس وهى ترعش الوسطى لأم طارق أمام جموع سيدات الحارة المتجمعات فى الساحة الكبيرة المقابلة لبيت مديحة... أم البنات .. التى كانت حديث حارة دعمص منذ ست سنوات ... تلك

السيدة المتزوجة من إبراهيم .. عامل التحويلة بمحطة السكة الحديد.. والذى تزوج مديحة بعد ثلاث زيجات لينجب الولد .. و بعد شهر من الزواج وعلمه بأن زوجه حامل .. أخذ يعد الايام حتى ميعاد الولادة، وفى فجر يوم من أيام يناير الباردة، قفز من نومه على صراخ زوجته طالبة الداية أم محروس .. وهب مرتديا معطفه من الصوف الميرى مهرولاً لإحضار أم محروس من شارع السبعينى، ومشاعر متناقضة تعصف بعشوائية فى عقله... يفكر فى الولد، ويفرح بتخيله أم محروس مطلقة زغرودة وهى تزف اليه بشرى الولد وهو منتصب فى صحن داره ... وينتبه على قطرات المطر المتساقطة على وجهه لتأخذه الى الجانب الآخر المظلم من الحلم محدثاً نفسه ....."هاتوجع دماغك ليه، جيب الست الفقرية أم محروس ولما نشوف."

دخلت أم محروس على مديحة وهى تُبَسمِل وتُشَهِد وتطلب الماء الساخن و البشاكير من النساء الآتى تَجمعْن على صراخ مديحة، ولكن الوقت طال على إبراهيم الواقف أمام باب الغرفة المغلق منذ ساعة، وأحس كأنه دهر بعد أن خرجت عليه أم محروس قائلة وهى تتحاشى النظر فى عينيه:–

– مبروك.. بس هى و العيال محتاجين راحة.

– جابت ايه يا وليه؟!

– توأمان

قالتها وهى تحاول أن تخفى تلعثماً وارتباكاً واضحاً، أثار غضب إبراهيم، ليس خوفا من أن التوأمين بنات ولكن خوفا على أجرتها.

– ما تقولى يا وليه .واد ولا بنت؟

– أربع بنات زى القمر.

– الله يحرقك ويلعنها.

ودخل على مديحة غرفتها، على غير عادات الفلاحين من الانتظار حتى اليوم السابع، قائلاً بصوت كالرعد :

– انتى طالق ..طالق يا ام البنات.

وخرج من الدار ولم يره أحد بعد ذلك أبداً.

****

بدأت عملية تأمين شرف الصغيرات باستئصال ذلك العضو الفاسد في دار أم البنات، بدخول أم طارق وابنتها الصغيرة، وتعالى الصراخ بعد لحظات، مما جعل رؤوس الأطفال تشرئب لتعرف ماذا يحدث في الداخل، وبعد برهة تخرج أم طارق وبعض النسوة حاملات الطفلة الصغيرة من الاربعة أطراف ومزيج من الدماء و العجين الدمم يلوث ساقيها وكأنها نُحرت فيما بين فخذيها. وترى البنات الصغيرات ذلك المشهد، ويبدأن في البكاء، فتخرج عليهن أم محروس بصوت كالرعد بسب آبائهن و أمهاتهن اللاتي لا يستطعن إسكاتهن . مما يلجم الأطفال تماما كأنهن أموات.

ترى بديعة ما يدور حولها ولكن عقلها الصغير لا يستوعب الحاصل أمامها ويعتريها الفضول لما يحدث بداخل الغرفة. وعيناها الزائغتان تلفتان كالتائهة . وتقع عين أم محروس عليها، متسائلة عن هذه الطفلة، وتهرول آمنة قائلة باستعطاف :

– تقع مع أختها يا خالة أم محروس ؟

وتقترب منها أم محروس متفحصة ذلك الجسد النحيل، وتشم بديعة الرائحة الكريهة.. رائحة عرق وبول مختلط بالدماء، مما جعلها تخطو الى الخلف بطريقة لا إرادية واضعة يدها على أنفها، فتصدر أم

محروس ذاك الصوت التقليدى من أنفها مبتسمة لبديعة، قائلة لها وهى متجهة الى غرفة العمليات :

– ساعة يا روح أمك وتدخلى لى ... وهاوضيك كويس.

تتسلل بديعة وسط البنات المفترشات الأرض بجوار أمهاتهن، وتقترب من باب الغرفة، وتسمع صراخ الطفلة بوضوح، وصوت أم محروس يطلب من أمها أن تقوم بفتح ساقيها و تثبيتهما حتى لا يصيبها حد الموسى أو أن تستأصل جزءاً كبيراً من الجلد... وترتعد بديعة رعباً وهى تنظر من فرجة الباب وترى امرأة تسكب الماء على الدقيق وتقوم بعجنه، وأخرى تمسك بيدى الطفلة من فوق رأسها، وثالثة تمسك بساقى الطفلة الصغيرة، وأم محروس بردائها الأسود تقترب مما بين ساقى الطفلة وتنحنى ممسكة بشفرة الموسى فى يدها اليمنى، ويدها اليسرى مندسة فيما بين فخذى الصغيرة، وعند اختفاء اليدين يبدأ الصراخ أعلى و أعلى، ولم تشعر بديعة بسريان الماء الدافئ المنساب من بين ساقيها، وإنكماشها رويداً رويداً الى الخلف ، حتى أصبحت خلف حلقة البنات و أمهاتهن المتجمعات أمام الدار. لم تدر بديعة، هل ترجع الى بيتها أم تخبر أمها بما رأت، لم تعرف ماذا تفعل وهى تسير وتفكر، حتى سمعت صوت نفير القطار فى محطة كفر الدوار، ففعلت كما رأت من يقفون على رصيف المحطة فاعلين. استقلت القطار وهى لا تدرى أنها قد بدأت رحلة حياة جديدة .

أفاقت بديعة من تكرار مشهد أم محروس المتكرر فى ذاكرتها على سكون أصاب عربة القطار بعد أن هدأت حركاته، ونزل من كانوا فيه قياما وجلوسا الى حيث رصيف محطة مصر بمحافظة الاسكندرية. فنزلت من العربة الى الرصيف تتقاذفها أمواج من البشر المسافرين

تقابلها أمواج أخرى من الخارجين من المحطة ، حتى وجدت نفسها وسط حشد من الناس... وأصوات الصياح تحيط بها من كل جانب...

حنطور .. حنطور يا بيه ..تاخد كام .... الشيل كتير .... فين القهوة العالية لو تسمح ... العصافيرى ... محرم بيه.... غيط العنب من فين يا ريس؟....

كل تلك الكلمات الصاخبة الزاعقة تتناهى الى سمع بديعة وهى تلتفت يميناً ويساراً مندهشة من كل تلك الأجساد و الأشكال التى لم ترها فى حياتها من قبل .وأخذت تمشى فاغرة فمها متفحصة ما يدور حولها حتى ساقتها قدماها الصغيرتان الى ميدان المحطة الفسيح بكراسيه الضيقة وانزوت جالسة على أحد مقاعده وقد بدأت مشاعر الخوف تغزو قلب طفلة لم يتعد عمرها السبع سنوات. ورغبة فى الرجوع تسيطر عليها، الى أن بدأت الدموع تنساب من عينيها..

الرجوع ... الرجوع المقترن بنظرات أم محروس .وعينيها الحمراوين... و الدماء..والرائحة النتنة...لا..لا ، لا يمكن. ولكن ماذا تفعل الصغيرة وسط هذا المولد الكبير.. وأخذت بديعة تلتفت يميناً ويساراً، تشاهد الاطفال المسكة بأيادى أمهاتها و آبائها، وأحست بالجوع عند رؤيتها طفلة تمسك شقة من الخبز فى يدها، فابتلعت ريقها . ولم تدر وقتها بأن هناك عيناً تراقب وتشاهد ... عين شحاتة، ذلك الرجل العجوز ذو الستين عاما، صاحب نصبة الشاى خلف موقف العربات الكارو اقترب منها شحاته متسائلا :

– إنتى تايهة يا حلوة ؟

باغتها السؤال، و أخافها منظره الاشعث الأغبر، ورائحة المياه المُعَرّقة تفوح من جلبابه، ولكنها أومأت برأسها بالإيجاب.

– إنتي منين يا شاطرة؟
– من كفر الدوار.
– واسمك إيه؟
– اسمي بديعة.
– بديعة إيه؟
– بديعة يوسف العباسي.
– تُهتي من أمك ولا أبوكي؟
– مش عارفة.

وأجهشت بالبكاء من شدة الخوف، وربت شحاته على كتفها مطمئنا إياها :

– خلاص .. خلاص ..ما تعيطيش، ولا يهمك... إنتي شكلك جعان .. تعالى اقعدى جنبى هناك عند النصبة ولما أخلص شغل هانشوف نعمل إيه. ياواد يا شاكوش، هات سندوتشين فول بالحمص من المبروك وتعالى بسرعة يا ابن التعبانة.

وانهمك شحاته فى طلبات الشاى و القهوة بطريقة آلية وبسرعة مدهشة يسكب الماء الساخن من البراد النحاسى الكبير، ويرمى بطريقة مستهترة بالسكر و الشاى فى جوف الأكواب الزجاجية ويقلب بملعقة هى أشبه بقطعة من الصفيح عكس اتجاه عقارب الساعة، بصوت مزعج ملفتاً نظر المارة اليه. ويلَتّف كل سائقى عربات الحنطور فى تجمعات ثنائية أو ثلاثية انتظارا لتوصيلة زبون، وهم يتجرعون رشفات الشاى الساخن بجوار نصبة شحاته.

انتهى يوم شحاته الساعة الثانية عشرة مساء، فأخذ يسكب الماء المغلى الباقى فى البراد النحاسى على الارض، وجمع الاكواب

الزجاجية المغسولة فى جردل كبير، ويضع بواقي السكر و الشاى فى درج الطاولة الخشبية ذات القفل الصغير، المثبتة فى الأرض بجوار السور الحديدى القصير.

- يالا بينا ياسمارة، تعبتي النهاردة من القعدة طول النهار.

لم تلتفت اليه بديعة، حيث كانت تغط فى نوم عميق، فالتفت اليها شحاته ونظر الى وجهها الاسمر الطفولى وتقسيمات أنفها وفمها الصغير، وابتسم حاملاً إياها على كتفه، وركب بها الحنطور وبجواره الشاكوش، متجهين الى عشش الصفيح بسيدى بشر.

****

يُنسَب مسجد سيدى بشر إلى الشيخ بشر بن الحسن الجوهرى، الذى استقر فى الاسكندرية فى أواخر القرن الخامس الهجرى مع من جاء من علماء المغرب و الأندلس فى تلك الفترة، وكان الشيخ بشر الجوهرى زاهداً و متصوفاً . اعتزل العالم و أقام فى منطقة بعيدة منعزلة على شاطىء البحر، ودُفن فى نفس المكان الذى كان يقيم فيه عند وفاته عام ٥٢٨ هجرية. وعندما امتد العمران الى هذه المنطقة، أنشأ الأهالى مسجدا حول الضريح فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى وتم تجديده فى عهد الخديوى إسماعيل الثانى الذى مد خط سكة حديد الى المنطقة ليصلى فى المسجد صلاة الجمعة من كل أسبوع أثناء قضائه فترة الصيف . وفى عام ١٩٤٥ توسع المسجد وأُضيف اليه أربعة أمثال مساحته، وبدأت مجموعات من الناس تسكن بطريقة عشوائية، فى حجرات ذات جدران من الصفيح، حول تلك المنطقة المترامية الاطراف، التى تُعتبر وقت ذاك خارج نطاق العمار، وبين مجموعة من تلك المجموعات فى منطقة سيدى بشر النائية، التى تحفها

كسبان رملية، بينها مستنقعات من المياه الراكدة، وعلى مد البصر يمكن مشاهدة البحر ... بحر الاسكندرية، يفصل بينهما قاعدة بحرية صغيرة لحرس الحدود، لحماية الشاطيء من تجار المخدرات، الذين يقومون بإلقاء البضاعة في البحر، وينزل العوامون لاحضارها عند هبوط الليل، وكم من ليال كثيرة تضيء السماء ويسمع قاطنو العشش الصفيح طلقات الرصاص بين الطرفين، ويقتل من يقتل ويقبض على سيىء الحظ من الشباب و الصبيَة، وقد تعود ساكنو العشش على تلك الاحداث فلم يلقوا لها بالا، واستمروا في معيشتهم هذه كل في حاله، وفي عشة ذات جدران من الصفيح، وسقف من ألواح الخشب المغطى بطبقة من البلاك ليحميه من أمطار وسقيع شتاء الاسكندرية القارص . وسط جيران من العرب و الصعايدة و البدو والليبيين النازحين من أماكن شتى.. يقيمون جميعا في هذه المنطقة المليئة بالبوص النابت حول المستنقعات، يسكن شحاته والشاكوش وحيدين، إلا من ليالي الأنس مع غالية، تلك السيدة البدوية التي نزحت الى الاسكندرية منذ طفولتها مع أمها المصرية الهاربة من أبيها الليبي، الذي تزوج أمها وسافر بها الى ليبيا لتكتشف أنها ليست بزوجة ولكنها خادمة لثلاث نسوة أخريات هن زوجاته ، و الذي لم يستنكف أن يغار على عرضه، فكان يدعو أصحابه الى سهرات المجون و السكر وتفعل الخمر ما تفعل في رؤوسهم ويراودون الزوجة عن نفسها أمام زوجها . ولم تطق أم غالية تلك العيشة فهربت وطفلتها في عربة لنقل المياه على الحدود، بعد أن حبسها زوجها ومنع عنها الطعام . واستقرت أم غالية في عشش الصفيح بسيدي بشر، تخدم في بيوت الاثرياء، لتربي ابنتها غالية التي امتهنت نفس مهنة أمها، ولكن بعد وفاة الأم لم تقنع غالية بما تدره

عليها خدمة البيوت، فبدأت تمتهن أقدم مهنة فى التاريخ... تبيع جسدها ..وساعدها فى ذلك قوامها البرى .. وجمالها البدوى .. وكما هو متبع في ذلك الوقت، استخرجت رخصة لممارسة الدعارة بصفتها مقطورة ...أى ممارسة للبغاء ... وليست عايقة، أى قوادة . وكان زبائنها يطلبونها بالاسم، لما تتمتع به من دلال وجمال، الى أن أُعلنت الأحكام العرفية عام ١٩٤٩، وصدر مرسوم عسكرى بإلغاء شرعية البغاء، وغلق بيوت الدعارة، ولكن من يتذوق طعم الحرام وسهولته لا يستطيع أن يتوقف بسهولة عنه، فكما كانت تردد أم غالية " الحرام طعمه حلو وسهل... بس ما بيدُومش".

و من أوائل من استوطنوا العشش الصفيح كان شحاته، ولم يعرف قاطنو العشش من أين أتى هذا الرجل ذو الستين عاما ... وكعادة المجتمع المصرى، يحاول كل شخص أن يغوص فى تفاصيل وحياة الآخر، وعندما يصدم بحائط المجهول، يسافر به خياله، وينسج القصص و الحكايات الموثّقة بخرافات، وأحيانا يضيف اليها بعض الحوادث المعلومة ليضفى على الحدث المجهول مصداقية كاذبة. فمن قال أن عم شحاتة كان من رجال عرابى، وعندما اندحر فى موقعة التل الكبير، فرت فلول جيشه فى أنحاء المحروسة، وكان منهم شحاته الذى كان الساعد الأيمن لعرابى. ومنهم من ادعى أن شحاته أتى من أقاصى الصعيد بسوهاج، هاربا من العسكر، لقتله البرنس، لانتزاعه أرض شحاته الواقعة على النيل . ومنهم من أكد أن شحاته هارب من قبيلة بدوية فى مطروح، لمواقعته فتاة من فتيات القبيلة....... وأقاويل وحكايات يتندر بها ساكنو العشش فى ليالى شتاء الاسكندرية، وهم مجتمعون حول نار الحطب ليستدفئوا ويسردوا حكاياتهم...فى غياب

شحاته المعتاد فى شهر فبراير من كل عام . وعلى الرغم من تناثر الحكايات الغريبة ووصولها الى آذن شحاته، فهو دائم الابتسام، ولا ينفى أو يؤكد تلك الاقاويل، مما زاده رهبة وغموضا.

يقطن مع شحاته هذا الصبى الملقب بالشاكوش منذ ستة عشر عاما ، واستقر به فى تلك المنطقة النائية وقت ذاك، وأعطاه لأم غالية قبل وفاتها بأعوام قليلة لكي تربيه وتهتم به، ليساعده فى شئونه وأعماله.. وكان شحاته يعامل هذا الطفل معاملة الأب لابنه، من لين وحزم وتوجيه لكى يكون سنده فى شيخوخته كما كان يتوقع، وعلى الرغم من معرفة شحاته لسلوك غالية بعد وفاة أمها ، إلا أنه كان رقيقا معها، ولم يفهم هل هذه رقة الذئب أم الأب أم الزوج، على الرغم من مواقعته لغالية فى ليال كثيرة من ليالى الأنس و المزاج الغنية بسجائر الحشيش وجرعات السبرتو الأحمر . وأيضا طلباً لحماية شحاته ذى السطوة بين السكان. ولا يمنع ذلك من قيام غالية بترتيب ليال أفضل عندما تستطيع أن تسرق بعض بقايا زجاجات الجين و الفودكا من زبائنها ويقوم شحاته بإثراء تلك الليالى بقرش حشيش مغربى كامل، وتنتهى السهرة دائما بدفن الجسد البض المشوق الغائب فى نشوة الخمر و الحشيش فى جسد هرم، مليء بالتجاعيد، مجهد من الانفاس المتلاحقة.

فى الساعة الواحدة صباحا دخل شحاته فى دروب العشش الصفيح وهو يحمل على كتفه بديعة النائمة، يتبعه الشاكوش حتى وصل الى عشة غالية، وكعادته دائما، فتح الباب ذا الصرير المزعج دون استئذان، ناطقا تحيته المشهورة :

– سلامو عليكو

التفتت غالية من جلستها أمام وابور الجاز لرد تحيته ولكنها توقفت

قبل انتباهها باندهاش:

- يا مرحب يا...... اللى جابلك يخليلك يا ابو الرجال.

- اتلمى يا مرة .. وشوفى لقمة احسن انا واقع من الجوع، وخلى البت دى عندك لحد الصبح، ولما تصحى ناديلى ...

قالها بسرعة ونظرة خاطفة الى فخذ غالية المكشوف أمام لهب الوابور المشتعل أسفل وعاء به قطع من اللحم. وغادر الى عشته والشاكوش، وبمجرد دخوله ارتمى الصبى على بطانية ممزقة خاصة بعساكر الجيش متكومة فى ركن من أركان العشة الصغيرة. التى تحوى بين جدرانها لمبة جاز معلقة فى السقف، وكنبة بسحارة ينام عليها شحاته، وصندوق خشبى يحتوى على خرق باليه هى ملابس كلا من شحاته والشاكوش، وبعد أن استراح من حمله، أخرج شحاته مفتاحاً صغيراً معلقاً فى سرواله، وقام بفتح الكنبة .. وجلس متربعا على الأرض يخرج كيس نقوده المعلق فى صديرى تحت قميصه، وأخذ يعد القروش و الملاليم، دون صوت، ووضع إيراد يومه داخل كيس أكبر فى سحارة الكنبة، وأغلقه كما كان، ووضع البطانية البالية عليها واستلقى ينظر من ثقب فى أعلى جدار العشة الى القمر الساطع فى السماء وهو يفكر .... ولم ينتبه إلا على رائحة اللحم المتصاعد من طبق تمسكه غالية فوق رأسها، وضحكة مائعة تخرج من فمها توقظ الشاكوش من غفوته.. ويهب شحاته جالسا على الكنبة صارخا فى غالية:

- إنتى بروح أمك مش هاتبطلى تتسحبى زى العرسة.

- وإحنا بينا الكلام الفاضى ده.

طيب حطى الطفح وغورى . قالها بإنفعال من شدة غضبه من تلك

الحورية التى قطعت عليه فكرة قفزت الى عقله، ولكنه سرعان ما عاد الى هدونه بعد أن قالت بدلال :

– ها أكل معاكوا

– وماله يا غالية .. وماله .قالها شاخصا الى عينيها ذات البريق والدلال ولكنها رمقته بنظرة عابسة ، أتبعتها بقولها :

– الشاكوش صاحى .. والبت بتاعتك نايمة لوحدها عندى .. فأحسنلك إتلم الليلة.

ونهض الثلاثة متحلقين حول طبق من اللحمة بالصلصة المطبوخ بحبات الأرز، والذى يمثل لهم وجبة شهية، فى غير الأيام العادية . وسألت غالية وهى تلوك الطعام فى فمها عن هذه الطفلة الصغيرة الراقدة فى فراشها، ورمقها شحاته بنظرة حادة فأطبقت فمها صامتة. وخرج الثلاثة يفترشون الأرض أمام عشة غالية بعد انتهائهم من تلك الوليمة لتناول الشاى، وقد أعدت غالية بعض قوالح الذرة وأضرمت بها النار ووضعت البراد وسط جمراتها، ونظرت الى الشاكوش مشاكسة إياه:

– ما تيجى يا واد تشتغل معايا .

– أشتغل معاكى إيه يا غالية ؟ .. أمسح وأكنس ولا أرفع رجليا .

– أما انت قبيح ذى اللى رباك.

– أمك اللى مربيانى وحياة أمك.

ضحك شحاتة حتى أصابه السعال من شدة الضحك:

– ضحكتونى يا ولاد التعبانه.

وأخرج علبة التبغ من جيبه، وأخذ يلف ثلاث سجائر، الواحدة تلو الاخرى بكف يده اليمنى، حاملاً كوب الشاى باليد اليسرى قائلاً:

- عفر السيجارة دى وقوم عسّل علشان تقوم بدرى.

قالها شحاته بصوت عميق ناظرا الى الشاكوش بعينين جاحظتين، وفهم الشاكوش على الفور بأن وقت مغادرته قد حان، ليترك الذئب مع سرحانته. واتجه الى خلف العشة ليقضى حاجته، تتبعه عيون شحاته وغالية حتى اطمأنا الى دخوله العشة. وبعد برهة بدأ شحاته فى التحدث الى غالية بصوت منخفض.

- إيه اللى فى دماغك يا شحاته ؟

قالتها غالية بإهتمام شديد بعد أن سرد لها ما حدث طيلة النهار.

- إنتى شايفة إيه؟

- السكة دى خطر قوى .. ممكن أهل البت يدورو عليها، أو يمكن تفضل تزن علشان ترجع ليهم، ولا ممكن يا خويا الطوبة تيجى فى المعطوبة وحد يعرف البت ويشوفها عندنا ونوقع فى خرارة الحكومة.

- ما تخافيش، كل حاجة هاتترتب صح، بس لما نعرف هى سابت بيتهم ليه، شكلها كان خايف قوى لما جت، أكيد فى حاجة حصلتلها علشان كده هربت، على العموم أول ما تصحى خليكى حنينة معاها قوى، وناديلى على طول إوعى تخوفيها منك.

وسكت شحاته مزهوا بما يدور فى رأسه، ونظر الى غالية نظرة من له غرض فى شىء، وقال:

- ما تيجى يا بت نعمل طشّة .

- والله أنا مش عارفة الحِيل اللى بيجيلك ده منين؟ ده أنا ما بيتهدش حيلى إلا معاك يا راجل.

- الدهن فى العتاقى يا وليّه.

- بلاش الليلة دى .. خليها على سهرة مْوكنَه لما نوضب قعدة ..

الحالة اليومين دول مش ولابد، العسكر قاعد يُعكش فى الناس ..مش عارفة إيه الحكاية. قوم نام والأيام جاية كتير.

ونهضت غالية الى عشتها تاركة شحاته يلف سجائره أمام النار، يفكر و يخطط لما سيحدث غدا، حتى غلبه النعاس فنهض الى عشته هو الأخر و غط فى نومٍ عميق.

*****

استيقظت غالية على بكاء بديعة في الصباح فنهضت مسرعة اليها:

– ماتخافيش يا حبة عيني.. ماتخافيش.

نطقتها غالية بلهفة وهى تحتضن بديعة بين ذراعيها وتربت على ظهرها بمحبة أثارت اندهاش غالية نفسها، وانتقل شعور الدفء الى بديعة التى سكَتت عن البكاء وسألت غالية:

– إنتى مين؟

– ما تخافيش يا سمارة .. إنتى...

قاطعتها بديعة بسرعة مصححة لها بأن اسمها بديعة وليس سمارة.

– أنا بدلعك يا حبيبتى .. إنتى مع خالتك غالية، وعمك شحاته هو اللى جابك إمبارح بالليل، وكنتى نايمة، وماراضاش يصحيكى من النوم .. أنا رايحة أندهولك.

وأسرعت غالية الى شحاته لتوقظه فهب واقفا وهرول الى بديعة قائلا:

– صباح الخير يا سمارة.

– أنا اسمى بديعة .. أجابت أيضا مصححة له ولكن برعشة صوت خائف، على عكس حالتها مع غالية و التى اعقبت :

- خللى بالك يا عم شحاته، بديعة مخربشة .

- وماله .. دى باين عليها بت جدعة قوى .. جهزلنا الفطور وبعدين نتكلم .

جلست غالية أمام وابور الجاز متربعة، وكطاه ماهر أخذت فى إشعاله ووضعت طاسة سوداء اللون أعلى الشعلة الحمراء المشوبة بالسواد، وقامت بوضع البيض المخفوق فى الطاسة التى يتصاعد منها بخار الزبدة الساخنة حتى ارتفع ونضج، وبمهارة شديدة انزلق محتوى الطاسة فى طبق أخضر من الصاج، أعقبه وضع الفول المدمس فى نفس الطاسة الساخنة، وانهمكت غالية فى إضافة الزيت والليمون، وباطراف اصابعها المرتفعة عن الوعاء أخذت تتساقط حبات الكمون المجروش ورائحة الثوم الزاعقة فى أركان العشة جعلت لعاب بديعة يسيل هى وشحاته الذى نهض ليوقظ الشاكوش لكى يتناول معهم الافطار قبل الذهاب الى نصبة الشاى.

افترش الاربعة الأرض لتناول الأفطار معا، وأخذ شحاته وغالية يرمقان بديعة التى كانت تتناول اللقيمات الواحدة تلو الاخرى بسرعة تنم عن الجوع الشديد. و بعد أن انتهى الأربعة من تناول الطعام، نهضت غالية لإعداد الشاى.وغادر الشاكوش ليغسل وجهه ويقضى حاجته خلف التلة الرملية تاركا شحاته وهو ينظر الى بديعة قائلاً :

- قولى لنا يا سمارة...... يا بديعة إيه الحكاية من الأول علشان نرجعك عند أهلك ويطمنوا عليكى.

وترقرقت دمعة سريعة على وجنتى بديعة عند سماعها كلمة أهلها:

- أنا خايفة يا عم شحاته أرجع، أحسن أم محروس تقطعنى بالموس زى ما عملت فى البنات فى الحارة.

نظر شحاته الى غالية باندهاش شديد

- إيه اللى حصل ؟

حكت بديعة ما حدث أمامه بكل التفاصيل وببراءة الأطفال مما أدهش غالية وشحاته الذى ابتسم لغالية ابتسامة ماكرة، تلقفتها غالية بدهاء ونهضت مسرعة محتضنة بديعة فى صدرها، مُقَبلة إياها من رأسها :

- ما تخافيش يا حبيبتى .. اسم الله عليكى .. إحنا مش هانرجَعك أبداً.. إنتى عارفة لو رجعتى، هايجيبوا المقص الحامى، ويقصوا الحتة دى... وأشارت بأصابعها الى ما بين ساقى بديعة التى انتفضت وأخذت فى البكاء، ولم تهدأ حتى طمأنتها شحاته وغالية بعدم مقدرة أى شخص أن يمسها بسوء وهى معهما.

- بكرة إن شاء الله هاخد سمارة و اشترى لها هدمتين من السوق. ومن هنا ورايح إنتى اسمك سمارة وتنسى اسم بديعة يوسف العباسى خالص أحسن ترجعى للولية أم محروس . اتفقنا.

وهزت بديعة رأسها بالإيجاب ونهض شحاته مودعا الاثنتين، منادياً على الشاكوش للذهاب الى المحطة. ولحقت به غالية أمام باب العشة :

- أنا هاروّق البت على الآخر، وأهى تبقى مننا وعلينا، ولما نشوف إيه اللى هايحصل .

- إنتى سارحة النهاردة؟

- لا يا خويا، أنا مهدود حيلى، ومريحة النهاردة .. عاوزة أرم عضمى بشوية كوارع..

- طبعا ياولية.. ما إنتى شغالة الله ينور.

- بطل قرّ، الرجالة ماعادوش زى الأول ..آغانى الست خلتهم نايمين

فى العسل.

- طيب يعنى هاجى النهاردة وأرم العضمتين بتوعى أنا كمان؟ وبالمرة نطلع النخلة.

- اطبخى يا جارية، كلف يا سيدى.

قالتها غالية وهى تضع يدها تحت بطن شحاته الذى أصدر صوتاً كعواء الكلب، وأخرج ثلاثين قرشا دسها فى صدر غالية الزاعق من تحت جلبابها الاسود متحسسا إياه.

- إختشى ياراجل يا مريّل، خلّص شغل بدرى النهاردة ولما نشوف.

- يالا يا ابن الحايحة ورانا شغل.

وصرخ شحاته على الشاكوش مرة أخرى وانصرف الاثنان تاركين بديعة مع غالية التى نادت بدورها عليها، وذهبتا الى سوق المندرة خلف السكة الحديد، لشراء ما وعدت غالية به شحاته.

أمسكت سمارة بتلابيب غالية، فهى لم تر فى حياتها القصيرة هذا العدد من البشر، من بائعين ومشترين، فها هو سوق الخضار، يتراص البائعون على جانبى شريط القطار فى انتظام عشوائى، يشق وسطه ممر ضيق لمرتادى السوق متفحصين البضائع، يليه سوق السمك بما يحتويه من أشكال وأصناف كثيرة يفصل بينه وبين سوق اللحوم والطيور، بائعو الأطباق وأدوات المنزل، حتى تأتى نهاية السوق بتجار الأقمشة فى ركن نظيف ومرتب. دخلت غالية الى سوق الأقمشة فى البداية متجهة الى فَرْشَة عم عطا:

- صباح الخير يا عم عطا.

- صباح اللبن الحليب يا ست غالية.. إيه ده.. القمر الصغير ده تبعك بالصلاة على النبى؟

– يا ريت، دى بنت أخت عم شحاتة ... جاري.. أمها ماتت يا نن عيني، وملهاش حد غيره ، آهه أربيها وآكسب فيها ثواب.

– والله كلِّك خير يا ست غالية.. أصل إنتي ست أصيلة .. وربنا هايكرمك زى ما بتكرمى اليتيم.

– طيب علشان الكلمتين الحلوين دول .ـعاوزين كام توب قماش نعملهم هدمتين .

– من عينيا، وتمنهم عندى كمان.

– ورحمة أمى أبداً، ده كفاية ذوقك .

وأخذ عم عطا يقيس من كل لون ويقص كرجل محترف، يعرف مهنته التى ورثها عن آبائه وأجداده . وكيف يتعامل مع زبائنه بحلاوة اللسان و الثناء على أخلاق محدثه حتى ولو كان يعلم علم اليقين بكذبه.

– هاتفصليهم فين يا ست غالية؟

– عند الكفراوى أبو مكنة فى أول السوق.

– طيب أنا هابعت معاكى الواد حوده علشان يشهل ويخلص بسرعة.

– ربنا يديك على قد نيتك يا راجل يا طيب.

ذهبت غالية ساحبة سمارة من يدها، ويتقدمهما حوده الى الكفراوى أبومكنة:

– صباح الخير يا عم كفراوى.

– أهلا ...

قالها الكفراوى غير مبال بمحدثه، فأكمل حوده بأن عم عطا هو من أرسل الست غالية مع طفلتها ليحيك لها أربعة جلاليب، ويطلب منه الانتهاء مسافة شرائها لحاجياتها من السوق. وبمجرد أن سمع

الكفراوى بأن عم عطا هو من أرسلهم حتى هب واقفا مداعبا الصغيرة، وبدأ فى أخذ مقاساتها ..

- إنتى اسمك إيه؟

وردت غالية بسرعة واقتضاب، قاطعة سكة الحوار مع الكفراوى:

- اسمها سمارة يا عم كفراوى.

- دى بنتك يا ست؟

- أيوة بنتى ..والنبى خللى بالك معايا علشان دى أول مرة أفصلّها هدمة وعاوزاها تفرح بيها.

وندمت غالية على ما قالته للكفراوى الذى رمقها بنظرة ساكنة قائلا:

- طيب خَلَصِى تَسْوِيقتك وإرجَعِيلى أكون خلّصت.

- أفُوتَك بعافية.

والتفتت غالية الى حوده، وأمسكت يده واضعة راحة كفّها على راحة كفه، تاركة مليما نحاسياً ، متحسسة بأصابعها الأربعة كف يده حتى وصلت الى رسغه ، ناظرة الى عينيه مباشرة وبدلال العواهر قالت:

- تعبتك معايا يا حوده.

ارتبك الصبى وكأن أبواب جهنم فتحت لتنفث هواءها الساخن فى وجهه، الذى أصبح كقطعة من الجمر ، فانطلقت ضحكة قصيرة وغادرت هى وسمارة تاركة الصبى لا يقوى على الحركة، حاتي جزعه حتى لا ينكشف أمره من هذا الارتفاع البارز فى وسط جلبابه الى الأمام، شاخصاً بصرة الى عجيزة غالية، حتى ابتلعهما السوق .

*****

فتحت غالية باب عشتها بعد أن وضعت ما تحمله هى وسمارة على الأرض ونظرت اليها نظرة أمومة تعجبت غالية نفسها من تلك العاطفة

الفجانية والتى تظهر كل حين واخر، وسرعان ما دلفت الى الداخل هى وطفلتها . و أسرعت الى كيس الملابس الجديدة لسمارة :

- ورينى بقى.. عاوزة أشوف الهدوم الجديدة عليكى.

مشاعر متناقضة انتابت غالية من بداية النهار حتى رجوعها الى عشتها . مشاعر العطف و الحب، الكره والتملك، كل المتناقضات، فهى ترى بديعة كمستقبل لها، كالكنز الذى يجب الحفاظ عليه واستثماره حتى تحين اللحظة المناسبة لجنى أرباحه. تريدها لنفسها، بعيدا عن شحاته، الذى تعلم أنه ذئب ماكر، يعرف ما يدور فى خلدها . تريدها ابنة لأن مهنتها لن تتيح لها أن تتزوج وتستقر وتنجب بعد أن اقتربت من الأربعين . تنتفض ليلاً محتضنة إياها .. وأنفاس الصغيرة تتلاحق.. ويداها الصغيرتان تحوطان ما بين ساقيها بقوة ، صارخة... "لا يا خالة أم محروس" ...... انتبهت غالية الى سمارة الواقفة أمامها بسعادة قائلة :

- هاحمّيكى الأول وبعدين تلبسى الجلبية الجديدة.

وأحضرت الطشت النحاسى وجردل الماء والصابون ونادت على سمارة لكى تخلع ملابسها، ولكن الصغيرة سكنت مكانها ولم تتحرك.

- يا بت أنا زى أمك، بصِّى بقى، من هنا ورايح تقوليلى يا غالية، وبلاش يا خالة دى خالص، آنا وإنتى خوات و صحاب وحبايب . سرك معايا وسرى معاكى، اتفقنا ؟.

- حاضر .

أجابت سمارة على الرغم من عدم فهمها لأى شىء مما قالته غالية، ولكنها أحست بالاطمئنان. وتوسطت الطشت، وقامت غالية بخلع ملابس الصغيرة، و أخذت تسكب الماء على رأس سمارة وهى تغنى لها

" النص عاوز يدلع.... وانا مالى .. وانا مالى......................"

وبعد أن انتهت غالية، ألبست بديعة جلباباً جديداً وجلست متربعة على الحصيرة الخوص وبين رجليها رقدت سمارة مستسلمة ليد غالية وهى تُضَفِر لها شعرها باستكانة ونعاس.

– أخلَص اللّى فى إيدى وأعملّك تصبيرة وتنامى شوية.

وجهزت غالية سريعا طبقا من الشعرية المحمرة بالسمن و السكر وناولته لسمارة، ونهضت لكى تستحم هى الأخرى بدورها. وخلعت غالية جلبابها الأسود، كاشفة عن جسد ممشوق أبيض، وجلست وسط الطشت النحاسى على كرسى خشبى ملاصق للأرض، واخذت تسكب الماء و قطعة الصابون السائرة على جسدها تترك طبقة بيضاء، ونظرت الى سمارة فوجدتها تشيح بوجهها خجلاً، فضحكت غالية وهى تصدر ذلك الصوت المبحوح الذى بات مألوفا لسمارة :

– إنتى مكسوفة يا بت ؟ طب أنا شفتك وإنتى بلبوصة ، ما اتكسفتش ليه؟ إحنا مش اتفقنا ولا إيه؟

أومأت سمارة برأسها وهى ما زالت ملتفتة الى الناحية الأخرى، واضعة كفيها الصغيرين على عينيها ..

– طب بُصّيلى يا بت، عاوزة أفهمك يا عبيطة علشان ما تطلعيش غشيمة.

التفتت سمارة ببطء ناحية غالية وهى ما زالت تضع يديها على وجهها لولا أن زعقت غالية ضاحكة :

– بصى لى يا حلوة، أنا مش بعبع، ده أن باخد دكر كامل علشان أقلع ملط ويتفرجوا عليا .. بُصّى يا بت.

نظرت سمارة الى جسد غالية، بكل تقسيماته وتعرجاته المنحوتة

كتمثال من المرمر الشامخ فى معبد من المعابد الرومانية القديمة.
- إنتى عارفة دول اسمهم إيه؟ ..... وأشارت غالية الى ثدييها ذوى الحلمتين النافرتين .

وأومات سمارة بوجهها يميناً ويساراً.

- دول اسمهم الأرانب، وكل واحدة عندها أرنب يمين وأرنب شمال، وسموهم الأرانب لإنهم ما بيهمدوش، كل هزّة لازم يتحركوا، طيب انتى عارفه ده بقى اسمه إيه ؟

وأشارت الى فرجها الذى تعلوه غابة كثيفة ملتوية الأطراف، ذات شحمتين متدليتين، تحتضنان فيما بينهما ذلك الجرح الذى يدمى بإستمرار، وأجابت سمارة أيضا بالنفى . فضحكت غالية ضحكة مائعة:-

- ده بقى اسمه كوكو .. وبيفضل فاتح البابين اللى إنتى شيفاهم .... وأشارت الى ثنايا جلدتيها .... لغاية ما الديك يقول كوكو كوكو فى الفجر. مالك يا بت مبرّقة كده ليه؟

- إنتى ما قطعوش الشفايف بتاعتك ليه يا غالية وإنتى صغيرة ؟

قالتها ببراءة، شاخصة بصرها الى هذه البوابة التى تفتقد الى مثيلتها، متسائلة:

- وأنا كوكو بتاعى مش زى بتاعك ليه.

أوقف السؤال مخطط غالية لهتك حاجز براءة الطفلة وارتبكت من مفاجأة السؤال لها، لكنها سرعان ما أجابت:

- الطهارة هى أن الداية تقص الشفايف دى بالمقص، وأنا ما إطاهرتش، وعلشان أنا أكبر منك كوكو بتاعى لازم يبقى أكبر من بتاعك، وكمان علشان فيه حجات تانية ها أبقى أقولهالك بعدين..

والتفتت غالية، موجهة ظهرها الى سمارة وانحنت حتى لامست أطراف أصابع يديها أصابع رجليها قائلة :

- واللى إنتى شايفاه ده بقى ، تبقى بوابة المتولى، كل الرجالة بيحبوها، وكفاياكى بقى وقومى نامى شوية، سخنتينى يا مفضوحة.

ونهضت سمارة متجهة الى الدكّة، وكورت نفسها وغطت فى نوم عميق . وبدأت غالية استحمامها ووضعت كعبى قدمها فيما بين فخذيها بعد أن حَكّته بحجر أسود، واضعة يدها ناحية مؤخرتها حتى اهتزت، وتقلص جسدها وتنهدت بشدة، بعد أن ارتخت كل عضلات جسدها، وانتظرت قليلا حتى هدأت، وأكملت غسلها، بعد أن هدمت أول جدار لفطرة الطفلة الصغيرة.

خرجت غالية بعد ان ارتدت ملابسها، ساكبة مياه الاستحمام الممتزجة برائحة الصابون العطر أمام عشتها، ودخلت متربعة أمام وابور الجاز، تجهز عشاء الكوارع بالفتة التى وعدت بها شحاته، ممنية نفسها بسهرة سلطنة تعدل بها مزاجها مع شحاته.

واستيقظت سمارة بعد غروب الشمس ووجدت غالية جالسة أمام باب العشة، واضعة براد الشاى على جذوة حطب مشتعل، فجلست فى حجر غالية دون ان تنبس ببنت شفة، داعكة عينيها بكفى يديها الصغيرتين، فاحتضنتها غالية فى صدرها قائلة :

- تشربى حبة شاى يا سمارة ؟

أومأت سمارة بالنفى دافسة رأسها فى حضن غالية.

- هاحطلك شفطة فى الكوباية علشان تصحصحى شوية.

وشربت سمارة رشفات الشاى الساخن وهى متربعة فى حجر غالية التى تداعب خصلات شعرها بأصابعها، قائلة :

- إوعى تخافى من حاجة يا سمارة، اللى نفسك فيه إعمليه مدام هايبسطك، وإوعى تخلى حد يتحكم و يكلبش فيكى، حتى لو إنتى محتاجة . خليكى دايما مستغنية، علشان ماحدش يمسكك من إيدك ويحط راسك تحت الجزمة.

شخصت غالية ببصرها الى السماء الداكنة بالسواد المشوب بحمرة الغروب، أضفت على الجو سكوناً وهدوءاً مصحوباً بنسمات باردة آتية من البحر.

- إنتى عارفة أنا ما اتجوزتش ليه ؟ علشان الرجالة بيحبوا يخلوا الستات عبيد زى الخدامين اللى فى سريات الباشاوات، وطول ما هو بيصرف عليكى ويحط الاكل فى بقك لازم ما تقوليش لأ لأى حاجة هو يقولها، يمين يمين .. شمال شمال، وييجى فى آخر الليل ينط عليكى، ويعمل اللى هوه عاوزه حتى لو إنتى مش عايزة ....

- يعنى إيه ينط عليكى يا غالية؟

قاطعتها سمارة بسؤالها .. و نظرت غالية بإندهاش الى تلك الطفلة المندسة فى صدرها متسائلة باستنكار:

- هو يعنى إنتى فهمتى كل حاجة قولتها و وقفت معاكى دى بس؟!

قالتها باسمة وهى تداعب خصلات شعر سمارة الأمامية.

- إنتى عارفة إن الرجالة معندهمش كوكو زى بتاعنا .. دول عندهم حاجة طالعه لبرة زى صباع الموز ..

وقاطعتها سمارة مرة أخرى متسائلة:

- هو إيه الموز يا غالية ؟

- إنتى ما آكلتيش الموز قبل كده يا عينى؟ باندهاش شديد تساءلت غالية .... بكرة هاشتريلك وقية وهادلعك .. ده إنتى غلبانة على الآخر..

طيب تعرفى الخيار ؟

- أيوه.

- أهو زى الخيار بالظبط . ...

وبدأت غالية فى شرح كل كبيرة وصغيرة يمكن ان تحدث بين رجل وامرأة ببجاحتها المعهودة وفجاجتها فى الحكي، والتفتت اليها سمارة وببراءة الطفل الذى وجد ما يفرحه، كررت بإلحاح :

- طيب آنا عاوزة يتنط عليا يا غالية، مش إنتى بتقولى ده حلو قوى؟

وأجابت غالية ضاحكة :

- لسه شوية يا سمارة .. لما تكبرى شوية علشان كوكو بتاعك لسه صغير..

- طيب وعم شحاته و الشاكوش ...

لم تدعها غالية تكمل وهبت زاعقة :

- إوعى تقولى الكلام ده لأى حد خالص .. أحسن أرجعك لأم محروس، ولا تبقى صاحبتى ولا أعرفك .. قالتها غالية بعصبية شديدة، فارتعدت سمارة كمن لدغته حية:

- حاضر .. مش هاقول أى حاجة خلاص .. بس ما تودنيش لأم محروس .

وأجهشت فى البكاء واضعة وجهها فى صدر غالية، ولم تتوقف إلا بعد أن طمأنتها بأنها لن تفعل ذلك طالما التزمت بما قالته لها.

****

وصل شحاتة و الشاكوش مبكراً كغير العادة، مما فاجأ غالية والتى سالته بإستنكار ممتزج بزهو الأنثى المرغوبة:

- جيت بدرى يعنى، هو الكيف حبَكْ قوى؟!

- إهمدى يا وليـة، الدنيـا مـقلوبة فى إسكندرية كلهـا، وانا قـدام المحطة لقيت عربيات الجيش و الدبابات و العساكر فى كل حته، والناس بتـجـرى كإننا فـى حـرب، ومـا صـدقت فـضّـيت النصـبـة ويا فكيك أنا والشـاكـوش على الابراهيمـيـة علشـان أجيب الحـاجة لزوم السـهـرة من الخواجة عازر، وبالعافية وصلت . ده العساكر و الدبابات رايحة المنتزة وباين عليه الملك ها يطرد الإنجليز.

- طب وإحنا مـالنـا . يطردهم ولا يقعدهم مـعـاه، هاتفرق مـعـانا فى إيه؟!

- على رأيك، أدينا عـــايشـين، و اللى نعــرفـــه أحـــسـن من اللـى مـانعرفـهـوش... يطلع الإنجليز... يدخلوا الالمان ولا الفرانسـاويين .... سيبك يا شيخة، وقوليلى أخبار الكوارع إيه؟

- كله ألصْـتـه، بس على الله تكون مُـوجِب فى السـهـرة، أحـسن أنا خرمانه من كله.

- طبعا يا حتّة، ده إحنا هانعمل عمايل الليلة دى.

ونصـبت غاليـة فرشـة الطعـام على الأرض، ووضـعت صـينيـة الفـتـة المتـصـاعد منـهـا رائحـة الثـوم المـيـزة بجـوار أطبـاق شـوربـة الكوارع السـاخنة وحبـات الليمـون الأصـفـر، وأكل الأربعة حـتـى امتـلأت البطون وانكفأ كل واحد منهم على الارض.

- تسلم إيدك يا غالية.

قالها الشـاكـوش وهو يتـجشـأ بصـوت مزعج مـحـركا يده على بطنه بشكل دائرى.

- بالهنا و الشفا يا روح غالية.

- الأكلة دى عاوزالها سطل شاى أسود وسيجارة ممزمزة.
- قول لعمك شحاتة .. هو صاحب المخزن ببضاعته.

وقامت غالية لوضع البراد النحاسى على الوابور لإعداد الشاى، وجلس شحاتة يلف سجائره من التبغ المطعم بالحشيش من العلبة الصفيح لثلاثتهم، ونظر الى سمارة قائلا :

- إيه أخبارك يا سمارة ؟ أنا شايف حاجات حلوة.
- غالية عملتلى تلات جلاليب النهاردة، اشترت لى أتواب من عم عطا ورحنا لعم الكفراوى بتا ع المكنة.

نظر اليها شحاتة بإعجاب شديد لقدرتها على تذكر الأحداث والأسماء:

- مبروك عليكى يا سمارة، طول ما أنتى بتسمعى الكلام، خالتك غالية هاتشتريلك حاجات حلوة كتير .
- إحنا خلاص بقينا أصحاب ومابتقوليش غير يا غالية دلوقت.
- وماله، دى بنتنا وإحنا أهلها..... ولا إيه يا شاكوش؟

قالها شحاتة مفاجئا بها الشاكوش:

- طبعا يا عم شحاتة ..طبعا.

وتناول الأربعة الشاى مع أنفاس السجائر اللف المحشوة بالحشيش، وامتلأت الغرفة بالدخان الأزرق مما أدى الى إنسطال سمارة تماما وارتكانها الى جانب غالية التى كانت تسحب أنفاس السيجارة فتزيدها وهجا واحتراقا وتخرج الدخان الداكن من منخارها مرسلة رأسها الى الخلف فى نشوة وسعادة جعلت شحاتة يصرخ فى الشاكوش:

- ما تقوم يا بن الجزمة ... وأشار الى غالية .... صبيله كاس زى

ولاد الذوات خليه يهضم ويقوم.

ونهضت غالية الى صندوقها الخشبى و اخرجت ثلاثة كئوس زجاجية، تحتفظ بها لتلك الليالى وآخرجت من الكيس الاسود الذى أتى به شحاته من الخواجة عازر زجاجتين من الويسكى المحلى الذى يصنعه فى بدروم خمارته فى شارع اللاجيتيه بالإبراهيمية.

- واحدة واحدة ياروح أمك.... لما تخلص الإزازة الأولانية طلعى التانية، ده أنا دافع فيهم حتة بشلن.

انصاعت غالية لأوامر شحاتة وقامت بسكب جرعة فى كأس الشاكوش الذى دلقه مرة واحدة في جوفه مغمضا عينيه من شدة لذاعته، ومد يده بالكأس الفارغ وبعد أن فعل مثل المرة الأولى وانصرف مترنحا الى عشة شحاتة، ودلف اليها ملقيا بنفسه على الأرض دون حراك.

- وإنتى يا حلوة مش عاوزة تدوقى شوية.

باسما قالها شحاتة ناظراً الى سمارة التى تشاهد ما يحدث حولها بفضول طفولى، وأومأت برأسها أرضاً دون إيجاب أو نفى.

- شوفى أنا بحبك إزاى، آنا جبتلك إزازة سباتس علشان تشربيها قبل ما تنامى.

وتناول زجاجة الخمر من غالية وسكب قليلا منها فى كأس الشاكوش الفارغ، وأضاف ببطء من زجاجة الإسباتس وأعطاه لسمارة التى أخذت تتجرعه برشفات متتالية، وبعد أن آنهت ما فى الكأس بدآت الخمر تلعب برأسها وسقطت نائمة بين أيدى غالية التى أخذتها ودثرتها فى فراشها . والتفتت الى شحاتة بدلالٍ نازعة جلبابها ببطء شديد عن جسدها الابيض، كاشفة عن نهديها وفرجها المستور بلباس قطنى

أسود، يكشف عن ثنايا فخذيها . وارتدت قميص نوم أزرق بشريطين ضعيفين فوق كتفيها ونزعت ذلك الرباط المطاطى الذى يجمع شعرها الى الخلف، فإنسدل على ظهرها .

– يا دين النبى .. ده وقت دبوسة الأفيون.

وأخرج شحاتة ورقة سوليفان شفاف تحتوى على قطعة صغيرة داكنة اللون تنضح زيتاً له رائحة نفاذة وأخذ قطعة على طرف ظفره واضعاً اياها تحت لسانه و واضعاً الأخرى فى فم غالية التي أمسكت بأصبعه بين شفتيها ماصة له كأنه ساق من العظم فى فم كلب مسعور يحارب من آجلها منذ زمن.

بعد أن ذاب الأفيون فى أفواه أصحابه ، رقدت غالية على ظهرها فى وسط العشة ثانية ركبتيها، ونزع شحاته جلبابه وما تحته وأصبح عاريا تشهد ثنايا جلده تحت رقبته وذراعيه وبطنه عن زمن عاشه كهل فى كبد ومشقة، إلا من هذا الشيء النابض أسفله، يدل على عنفوان وقوة لا تتناسب مع هذا الجسد الهرِم . ربما من فعل الخمر وامتزاجها بالافيون ... ولكن ما يفعله مع هذه اللبؤة الراقدة على الأرض يدل على ذكر ممتلىء بالفحولة لا ينتظر سن أفيون أو كأس من الخمر الردىء، ليقوم بإسكان رجليها على كتفه نازعا هذه الخرقة السوداء ناظراً الى الفرج الناعس بين جلدتين عظيمتين تطل من أعلاها قطعة من اللحم النابض، وبعد أن انتهى شحاتة من إشباع غالية حتى طلبت منه إنزال ساقيها، ورقدت بجواره محتضنة إياه، فيما يقوم هو بلف سيجارتين بيده اليمنى، وتداعب اليسرى صدرها المتعرق اللامع، وبعد أن نفثا دخان السجائر مع كنوس الخمر نظر شحاته الى عينى غالية قائلا :

– عاوز أسبَح البطش فى بوابة المتولى ..قالها شحاتة واضعا طرف

أصبعه على تلك القطعة من اللحم النابض، وبحركة تدل على الاحتراف و الرغبة استلقت غالية على بطنها رافعة عجيزتها للأعلى، ضامة فخذيها معا، مستندة الى مرفقيها، وبعد ان التحم الجسدان وتلاحقت الأنفاس للمرة الثانية استلقى الاثنان بجوار بعضهما البعض في نشوة وضحك ، ثم أردف شحاتة قائلا :

- أخبار البت إيه ؟

- ما تقلقش، البت زى الفل ويجى منها، بس شوية صبر، دى لسه صغيرة، وأنا النهاردة ابتديت معاها كويس قوى، بس ما تجبلهاش سيرة، خليك عادى معاها خالص.

- يعنى أعتمد على الله و عليكى، البت دى سبوبة حلوة.

- طبعا ما تقلقش ..... وأطرقت صامتة لبرهة ثم أردفت بصوت خفيض قائلة..... بس أنا بقالى كام يوم ما نزلتش الشغل علشانها، وما ينفعش كده، الزباين يقولوا عليا إيه؟

- إنتى حايحة على طول يا ولية؟! ما لسه مديلك اثنين يكفوكى أسبوع، ولا هى فراغة عين؟

- لا يا دكر، دى فراغة جيب. لازم أنزل الشغل علشان الفلوس.

- طيب خدى النص ده .. ومد يده الى الصديرى الملقى بجواره ..

- لأ لأ، ليه كده، أنت فاكرنى إيه، ده مزاج معاك يا شحاته مش شغل، عيب عليك .

قالتها غالية وهى ممسكة بيد شحاتة مانعة يده من الخروج من الصديرى .

- طيب و العمل إيه ؟ البت هانوديها فين؟

- صح يا خويا، دى مش لازم تروح المدرسة ولا إيه؟

أطلق شحاتة ذلك الصوت المألوف من منخاره زاعقا فى غالية :

- أنتى عاوزة تفتحى علينا سكة إحنا مش قدها، ماتفوقى يا حايحة، مدرسة يعنى شهادة ميلاد ياروح أمك، اللى إحنا عملناه وشربناه من شوية عاوزه تطيريه يا بت المركوب، وحيات أمك ما أنا عاتقك .

والتف شحاتة بجسده واضعا يديها اسفل ظهرها فاتحا رجليها بعنف، مستندا بصدره على صدرها، ثانيا فخذيها بيديه الاثنتين وترك جسده يخترقها مرة ثالثة.

******

استيقظ شحاته على طرقات شديدة على الباب الصفيح، فهب واقفا متجها اليه:

- إيه يا عم .. أصطبح وقول يا صبح.

بصوت آجش، ونظرة حادة موجهة الى الطارق الذى بدأ جملته بتلك الكلمة التى يتوسطها حرف الحاء، كإشارة حمراء تستوقف السائرين:

- أوقف عدل أحسن أشدك على القسم ياروح أمك.

انتفض شحاته وتغيرت ملامحه وسحنته من العبوس الى الخنوع والاستسلام :

- تحت أمرك يا أفندى، خير... أيتها خدمة؟

- عاوزين سعد محمود خليفة البغدادى، مطلوب للجهادية، هو فين؟

ارتبك شحاته وبلع ريقه بصعوبة شديدة، وأجاب محدثه بصوت متحشرج :

- هو .. هو .. عند خالته فى الملاحة، وجاى بكرة الصبح.

- طيب إنت أبوه ولا ...

ولم يدعه شحاته يكمل جملته مجيبا
- لا.. لا... أنا المعلم بتاعه .. وأول ما ييجى هاأقوله على طول.
- تبْعَتُه بكره لشيخ الحارة، هايديلك جواب يطلع بيه ويسلم نفسه بعد بكره الساعة ستة الصبح فى منطقة التجميع إوعى يتأخر أحسن يبقى هاربان من الجهادية ويدخل السجن، أنت فاهم.

قالها بحدة أزعجت شحاته، والذى كظم غيظه من هذا المخبر الذى عكر عليه صباحه:

- أوامرك يا فندم..

بخنوع شديد أجابه شحاته وأغلق باب عشته ناظراً الى الشاكوش المندس وراء الكنبة الوحيدة فى هذه الغرفة، وعلامات الخوف بادية على جسده المرتعش:

- اللى خايف منه حصل يا سعد..

هذه أول مرة يذكر فيها شحاتة اسم الشاكوش الحقيقى صراحة أمامه.

- ماكانش لازم يا عم شحاته أدخل الابتدائية، ما أنا ماكملتش.

- لا يا سعد .. على الاقل إنت بتعرف تقرأ وتكتب، يعنى مافيش حد هايقدر يضحك عليك ولا يمضيك على حاجة.أنت فاكر لما جينا العشش دى من ستاشر سنة، وكان عندك تلات سنين، وأبوك الله يرحمه ويحسن اليه مات هو وأمك فى حريقة بيتكوا فى صافور، أخدتك تعيش معايا بعد ما ربنا افتكر مراتى، وربيتك زى ابنى اللى ماخلفتهوش، وقلت أنزل بيك اسكندرية، أهى دنيا واسعة ورزقها واسع.

شرد شحاته ببصره فى الفراغ كمن يريد أن يتذكر شيئاً من الماضى واستطرد بصوت خافت، مما جعل الشاكوش يقترب منه لكى

يسمعه:

– ابوك وأمك دول كانوا أهلى، آنا عمرى ما نسيت العشرة آبداً ...ونفض رأسه فجأة كمن تذكر شيأ... كل حاجة هاتعرفها فى وقتها. بس عاوزين نعرف هانعمل ايه فى الوكسة دى . أنا هاجى معاك بكرة لشيخ الحارة ونشوف يقدر يعمل إيه. ودلوقت قوم خلينا نشوف شغلنا.

نهض الاثنان متجهين الى عشة غالية التى كانت منهمكة فى إعداد الافطار، تساعدها سمارة فى كنس العشة وتوضيب فرشة نومها.

– صباح الخير يا سمارة .

– صباح الخير يا عم شحاته.

– صباح الخير يا بت.

– ماتقوليش يا بت.

– طب صباح الخير يا سمارة هانم.

– أهه كده، صباح الخير يا شاكوش.

وتعالت ضحكات غالية وشحاته وهما يشاهدان هذا التقارب بين الشاكوش وسمارة، وبعد أن تناولوا طعام الافطار اتجه الشاكوش وشحاته الى عملهما فى محطة مصر.

******

اتجه شحاتة و الشاكوش الى محطة مصر متأخرين كعادة شحاتة ،، عندما يسهر مع غالية سهرات المزاج . ولم يسأله الشاكوش إطلاقا عن أى أحداث يشاهدها غريبة أمام عينيه، كما عوده شحاته آن ينسى كلمة لماذا أو كيف.

ولكن فى طريقهما الى المحطة وجدا وحدات عسكرية بصورة مكثفة على كورنيش الإسكندرية، والسيارات العسكرية تصنع الحواجز وتشير

لعربات الكارو التى كانت تقل شحاتة و الشاكوش وغيرهما بالرجوع، ولفت نظر شحاتة أنه لم يسمع صوت القطار هذا الصباح كعادته، وأرجع سبب ذلك الى رأسه الثقيلة بعد تلك السهرة مع غالية.

رجع شحاتة و الشاكوش الى دارهما ووجدا غالية تنظر متلفتة خلف بابها بين الحين و الأخرى، فدلفا الى الداخل مستغربين ثلاثتهم.

– هو فى إيه النهاردة، الهجانة ماليين الحتة و العسكر منتشر على البحر. وبيلفوا على العشش ينبهوا على الناس إنها ما تخرجش من بيوتها.

ونهضت غالية مرة أخرى لتنظر خارج الباب، فإذا بأحد أفراد الهجانة على فرس يرفع الكرباج ملوحا:–

– ادخلى جوة يا مره، أحسن أسلخ جلدك بالكرباج.

صكت غالية الباب بعنف من شدة الخوف متجهة الى تلك الحلقة التى يفترشونها هى و شحاتة و الشاكوش و سمارة التى أخذت تلعب بعروسة من القماش المحشى بقطع الخرق البالية التى صنعتها لها غالية.

– الدنيا مقلوبة فى اسكندرية كلها .. و العساكر ماليين كل حتة، وبيرجعوا الناس من الطريق، قالها الشاكوش ناظراً الى شحاتة الذى أطرق صامتا الى الأرض، زائغ العينين، وبحركته الآلية تلف أصابع يده اليمنى مسحوق التبغ داخل ورقة البفرة الرقيقة، ساندا ذقنه على يده اليسرى محملقا فى فراغ الغرفة.

– آه لو عندنا البتاع ده اللى اسمه الراديون ..آنا بسمعه عند الناس العليوى اللى بروح أخدم عندهم، ده حاجة ولا فى الخيال، صندوق خشب وفى واحد قاعد جوه بيتكلم وبعدين يغنى وبعدين يقعد يحكى

بكلام مش فاهماه.

رد عليها الشاكوش ضاحكا بقهقهة عالية.

– ده اسمه الراديو يا غالية، يا لفة ودايرة .. هايكون فى راجل قاعد جوه إزاى ياولية يا مجنونة. طب ليه ما تكونش واحدة ست ؟

ضحك شحاته بصوت عال مستدركا:

– و الله كنت عاوز أشترى واحد من سوق الجمعة، بس المطرح هايبقى زى القهوة .. كل جيرانك الْهَمْ هييجوا عشان يتفرجوا على الصندوق اللى بيتكلم، وإحنا مش ناقصين، خلينا فى حالنا.

– بس أهه وقته جه. .. مش أحسن ما إحنا قاعدين زى الطرابيش، ما تقوم يا خويا وروح قهوة أبو رامى على القمة، وإسمعلنا الاخبار.

– إنتى يا مَرَه مهبوشة فى دماغك ولا الرزع بتاع إمبارح طيرلك نفوخك، بنقول الحكومة مِسْكَرة الشوارع، اللى بيحْجَر معاهم بياخدوه يوضبوه.

– طيب يا خويا ما تزَّعَلش نفسك كده، أدينى اتكتمت.

واستقر الاربعة فى عشة غالية طيلة النهار وبعد أن تناولوا الغداء استلقى كل منهم على الأرض و احتضنت غالية الطفلة الصغيرة وغطوا فى نوم عميق، ولم يستيقظوا إلا على صوت طائرات تجوب سماء الاسكندرية بالقرب من البحر و قصر المنتزة.

– أنا خايفة يا شحاته أحسن تكون الحرب قامت.

– ما تخافيش .. هايبقى فى حرب ليه ؟ الانجليز عاوزين يدخلوا البلد تانى ياموكوسة ولا إيه؟! .. ما همه كده كده جوه البلد والملك صاحبهم وحابيبهم، يبقى فين المشكلة.

– يمكن.....

- ما يمكنش اكتمى فى ليلتك السودة. وإحنا قاعدين زى الفنران فى الجحر ، مش عارفين نتحرك برة العشة. ده أنا عاوز أفك ميه ومش قادر.

- لا يا خويا، أنا خرجت وفكيت وإنتوا نايمين وكانت الدنيا هس هس.

- طب ماتقولي من بدرى.

ونهض شحاته وأعقبه الشاكوش ورجعت الحلقة كما كانت وانقضت الليلة بأكملها فى شرب الشاى و الإنصات الى السكون الذى أطبق على المنطقة كلها.

ذهب شحاتة مع الشاكوش الى الريس إسماعيل شيخ الحارة في سيدى جابر سائلا عن هذا الزائر الذى نغص على شحاتة ليلته.

- صباح الخير يا شيخنا.

قالها شحاته واضعاً تلك الابتسامة البلهاء على وجهه.

- أهلاً.. أيتها خدمة.

خرجت الكلمات باردة ممطوطة من فم شيخ الحارة دون أن يلتفت الى شحاتة، ووجهه منكب على دفتر عريض أمامه، والذى يتوسطه شنب كثيف تتخلله شعيرات بيضاء فى غير اتساق، يلف جسده البدين ...والذى زاده ضخامة جلسته المترهلة على كرسى خشبى .. جلباب من الصوف البيج ، صابغاً إياه بهيئة بائعى الخضار فى سوق المندرة ، أكثر من أن يكون شيخاً مسئولاً عن إجراءات التجنيد ، ومرجعاً للحكومة عن ساكنى منطقته. و الجالس على منضدة صغيرة لا تناسب تلك الغرفة الكبيرة ، ذات الجدران المتسخة باللون الرمادى، تكشف بعض أجزاء الطلاء الساقط منها عن طوب أبيض من الجير، فى بعض

من أركانها.

حكي شحاتة الى الريس إسماعيل ما حدث وهو يلف سيجارتين، معطيا إحداها الى الريس إسماعيل ناظرا الى عينيه، محاولا أن يظهر بمظهر الراجي والمستعطف للريس إسماعيل:

– وعاوزين نشوف حل للموضوع ده... وماتقلقش .. اللى إنت عاوزه.

– هأ هأ .. ده كان زمان يا معلم .. قالها بسخرية شديدة الى شحاتة الذى فغر فاه ... إنت مش من البلد ولا إيه يا خُرْونج .. الثورة قامت والجيش مسك البلد..الملك خلاص .. بح ..شحنوه على مركب وطلقوه في البحر والجيش مسك البلد والناس فرحانة يا قفل، والمظاهرات على ودِنه.

وبيلاهة شديدة رد شحاته على محدثه المنتشى بكلماته:

– والناس بتعمل مظاهرات ليه مدام فرحانة قوى كده؟

– إنت جحش يا ولاَه .. المصريين هايحكموا البلد بنفسهم، وهيوزعوا على الناس أرض وفلوس، والدنيا هاتزهزه.

– والله كلام تمام، بس ياريت ماحدش يطمع و.. سكت شحاتة فجأة لإنتباهه أنه يكلم أحد رجال العسكر ..ثم أردف ببلاهة وتملَق .... ده كله خير يا ريس ..ربنا يجعله عامر دايماً .. بس خلينا فى موضوع الواد .. وانتصب في وقفته مرة أخرى .... إعمل معروف ده أنا ماليش غيره وزى ما أنت شايف أنا راجل فى أواخر أيامى وهو اللى بيصرف عليا .. و...

قاطعة الريس إسماعيل ملوحاً بيده بتململ وضجر، مشيراً اليه لكى يصمت، وطلب منه أن يمر عليه بعد أسبوع لحين استتباب الأمن

والنظام، وسيرى ماذا يمكن أن يفعل.

سكت برهة ثم نظر الى شحاتة بطرف عينه بخبث قائلاً بصوت خفيض:

- بس ده هايكلفك شوية.

وانحسر فمه عن أسنان بنية مع ظهور ابتسامة صفراء علت وجهه الشاخص الى شحاته والذى أجاب بسرعة ومسكنة ليطمئن شيخ الحارة بأن كل طلباته مجابة :

- أوامرك .

- تلات ورقات بجمل.

وأشار بأصابعه الثلاثة فى وجه شحاتة، الذى طأطأ رأسه الى الأرض وأجاب بصوت واهن:

- كتير ياريس إسماعيل.

انتفض الريس إسماعيل من مقعده مقترباً من العجوز قائلا بحدة وتحد:

- خلاص .. يدخل الجهادية وربنا معاك ومعاه.

- أوامرك يا ريس ، أجيلك بعد أسبوع إنشاء الله.

وربت شحاتة بكف يده على كتف شيخ الحارة كمن يعتذر له:

- طيب حاجة من تحت الحساب!

أخذ شحاتة يخرج القطع النقدية من كل فتحات ملابسه أمام الريس إسماعيل بإنكسار واستكانة، ووضع الخمسة جنيهات فى يده مودعا إياه بالسلام عليكم.

******

- غرامتك كبيرة قوى يا شاكوش.

- البركة فيك يا عم شحاتة.

- لا وحياة أمك .. ده دين عليك.

- أوامرك يا معلمي، التلاتين جنيه هايكونوا عندك أول ما ربنا يفرجها.

- لا يا صايع أفندى.. أنا هاقولك تسدهم إزاى.

- وجب يا معلمي.

وفى طريقهم الى المحطة وجد الاثنان مظاهرات تأييد للثورة البيضاء، وشباب الجامعات وعمال المصانع حتى الفلاحين من النجوع، يجوبون الشوارع بالهتافات .. تحيا مصر .. تحيا مصر.

- لما نشوف .. هاناخد إيه.

تمتم شحاته بصوت خفيض ملتفتاً يميناً ويساراً كمن يخبر سراً حتى وصلوا الى محطة مصر، وشرعوا فى وضع نصبة الشاى كالمعتاد.

- عاوز أروح مينا البصل يا معلم، عاوز أشترى راديو من سوق الجمعة.

- إيه الحلاوة دى يا ابن المنْتُولة .. قالها شحاته مفعمة بسخرية محمولة على الصوت التقليدى لنخاره.

- عاوزين نعرف حال الدنيا يا معلم شحاته.. أحسن ما نبقى ماشيين فى الشارع ونلاقى الحكومة بتعكش فينا .. ولا نضرب بالنار زى الكلاب.

- عندك حق يا جحش .. وعاوز كام بالصلاة على النبى؟

- تلات نصاص.

- ما يحكمش ..بلاها راديو .. أدينا عايشين.

– طيب خليهم نصين واخصمهم من أجرة الاسبوع وحياة النبى يا معلم شحاتة.

– ماشى يا عم الثاقف . بس ما تتاخرش.

وهب الشاكوش واقفا، وقفز الى أول حنطور متجه الى سوق الجمعة بجوار بورصة القطن فى مينا البصل. وتنقل بين البائعين الذين يفترشون الأرض من ليلة الخميس ليحجزوا أماكنهم، يعرضون بضاعتهم من مسامير وعدد نجارة وحدادة، وآخرون يفترشون الأرض خلف أكوام من ملابس قديمة وأحذية تظهر الرقع الجلدية على جنباتها وصولا الى الأثاث القديم وبعض المصابيح و الشمعدانات المسروقة، ووجد الشاكوش ضالته عند رجل عجوز يرتكن فى مكان قصى عارضا بعض الادوات الموسيقية و الاسطوانات المشروخة. واشترى الشاكوش الراديو ذا الصندوق الخشبى، وكعادة مرتادى السوق لم يقم بتجربته أمام البائع، واتجه مباشرة الى نصبة الشاى وهو يتقافز فرحاً أمام شحاتة الذى نهره زاعقاً :

– خبى يا ابن الهبلة .. لفه فى القماشة دى وخطه تحت النصبة، إنت عاوز الخلق يتفرجوا علينا.

فعل الشاكوش ما أمره به معلمة، وأخذ فى توصيل أكواب الشاى الى العربجية القابعين أسفل شروج البغال فى الميدان، مراقباً قرص الشمس كل فينة وأخرى مستعجلاً إياه لينهى اليوم ويعود مع صندوقه الخشبى.

وفى المساء رجع الشاكوش وشحاته الى عشة عالية التى بدورها كانت تعد طعام العشاء، ودخل عليها الشاكوش عارضا عليها وسمارة ذلك الجهاز الجديد.

– يا حلاوة يا ولاد .. شغله والنبى يا شاكوش، عاوزين نسمع الكلام اللى جوه.

وبسذاجة الأطفال عند رؤيتهم لشىء جديد أخذت غالية تقلب فى الصندوق و هى تتحسسه وهى فاغرة فاهها وابتسامة بلهاء تعلو وجهها.

– بطلى جهل يا ولية..هاتضحكى العيال عليكى.

أردف شحاتة مداعبا.

– آاااااااه .. ضرب الشاكوش جبهته براحة يده .. إحنا نسينا نشترى الحجارة ..أنا هاروح دلوقتى الابراهيمية للخواجة أنطون بتاع الاسطوانات..

– إيه النصاحة دى ياولا ..إنت عارف الحاجات دي إزاى؟ الخواجة أنطون والراديو ، إش إش إش.

قالها شحاتة و هو يبرم طرف شاربه افتخارا بالشاكوش الذى أجابه:

– ما أنا بتعلم من اللى بشوفه وأسمعه يا معلم شحاته.

– يا خوفى من دماغك النضيفة دى.

– الوقت متأخر يا شاكوش، أحسن السواحلية يضربوا عليك نار.

أشارت غالية إلى الشاكوش بلهفة و هى تحاول أن تجذبه من بنطاله.

– أنا هاخد سكة القطر.

– الصباح رباح يا شاكوش .. اتهد وأقعد .. مش ناقصين مصايب.

– طب خلاص .. نُحطه دلوقت عند غالية.

– يا حلاوة يا ولاد .. عندى راديون فى العشة.

- إيه رأيك يا سمارة.. نظر شحاته الى سمارة معاكسا لها .. قوليلى يا بت إيه أخبارك؟ ماحدش سامعلك صوت.

- أنا قاعدة مع غالية طول اليوم ..نلعب شوية .. ونروق البيت وننضفه.

أجابته سمارة وهي تشيح بوجهها الى ما يتحدثون عنه.

- عفارم عليكي يا سمارة.. خدى القرش ده خليه معاكى .. تبقى تجيبيلك حاجة حلوة...

وناولها شحاته القرش مبتسما لها، وقضى الأربعة سهرة من الضحك واللهو، كمن أصابتهم عدوى الفرح العامة التى اجتاحت الشعب كله دون أن يدروا، الى أن تثاءب شحاته ونهض هو والشاكوش مغادرين الي عشتهم، فاستوقفت غالية شحاتة :

- عاوزاك يا شحاته .

- طب مش قدام العيال يا مَرَه.

- إنت مافيش في دماغك إلا القباحة... ياراجل بقولك عاوزاك فى كلمتين.

- طب إتكل إنت يا واد... وأشار الى الشاكوش بالانصراف ... خير يا بت ؟

- أم التيتي بتاعة كرموز بعتتلى النهاردة، وعاوزانى أروح أشتغل معاها، ودي ست عندها بدل الواحدة مية، وقرشها حاضر وحلو.

- بس إنتى عارفة إنها كانت عايقة كبيرة قوى فى كرموز قبل ما يمنعوا التراخيص، و بتشتغل في كله، يعنى إنتى مش هاتبقى عارفة إنتى بتشتغلي إيه، ممكن تبقى مع شوية رجالة النهاردة، وممكن توصلى بضاعة بكره، ودى مَرَه سكتها وسخة، ومنطقتها كبيرة قوى

لحد الكرنتينة فى الورديان.

وأطرق شحاتة صامتاً لبرهة وهو ينظر الى الأرض ملياً كمن يفكر فى حل لمشكلة ثم رفع بصره الى غالية قائلاً:

- بصي ياغالية، أحسن حاجة إنك تخليكى حرة نفسك، شغلك بمزاجك، محدش يتحكم فيكي، وغير كده إنتى ناقصة شغل يا وليه.

وجلس الاثنان أمام العشة، وأخرجت غالية من بين ثدييها قطعة حشيش تكفى لسيجارتين وناولتها لشحاتة ..

- لف علشان نمخمخ.

وأخرج شحاته علبة التبغ وشرع فى لف السجائر بحرفية وسرعة، ووضع واحدة فى فم غالية والأخرى بين شفتيه.. ونظر إليها متفحصاً هذا الشرود البادى على وجهها ثم سألها باهتمام:

- شكلك فى حاجة؟!

- أنا بقالى كام يوم من ساعة ما العسكر نزلوا الشوارع والبتاع ده اللى اسمها الثورة وأبصر إيه ومادرك إيه ، وأنا بقول لنفسى، يا بت مافيش حال زى ماهو، أنا لازم أعمل حاجة للأيام اللى جايه...دلوقتى يا خويا أنا معايا بت زى بقى، وأنت معاك راجل بالصلاة على النبى تقدر تتعكز عليه، والدنيا ملهاش أمان، بس أنا مش عارفة آحط إيدى على حاجة، عاوزة تأمن نفسى من غدر الزمن يا شحاتة، أنا دلوقتى بصحتى وأقدر أجيب القرش، بس يا غالم بكره فيه إيه؟"

- والله كلامك معقول، أول مرة أحس أنك مش زى القطط. سيبينى أفكر كده، وبلاش تنزلى شغل اليومين دول، الجو مزعبب، ولينا قعدة سلطنة، تصبحى على خير.

- وأنت من أهله.

ونهض الاثنان كل الى فراشه، تعبث كلمات غالية فى رأس شحاته، حتى انها ازاحت النوم من عينيه ولم ينتبه إلا على صوت يصدح فى السماء، قادم من بعيد، يردد الله أكبر.

أسدل النهار خيوطه المجدولة بأشعة الشمس المنعكسة على الجدران المعدنية الصدئة، وبدأت أصوات النسوة داخل تلك العلب الحديدية ترتفع مع الحركات الآلية المعتادة لهن بعد أن يغادر ذكورهن الى أعمالهن، و تجتمع الصبايا الصغيرات يلعبن خلف بيوتهن متحلقات فى مجموعات تتحدد بميل الرفيقات بعضهن الى البعض.

– عاوزة ألعب مع البنات اللى بره يا غالية.

قالتها سمارة مستعطفة غالية المنهمكة فى ترتيب عشتها بعد أن سمعت صخب البنات خلف الدار.

– طيب روحى، بس خلى بالك إوعى تغلطى لو سألوكى على حاجة، مش ناقصين مصايب.

– طيب يا غالية، أروح بقى؟

وخرجت سمارة مسرعة فى اتجاهها الى تجمُّع للفتيات الصغيرات فى ساحة تحيط بها برك الماء الراكد، وحشائش البوص المحيطة بالعشش، ووقفت متلفتة حولها علّها تجد مجموعة تقبل بإنضمامها... لولا سؤال فاجأها من خلفها:

– إنتى اسمك إيه؟

والتفتت سمارة الى هاتين الفتاتين الصغيرتين قائلة:

– أنا اسمى سمارة ... وإنتوا؟

وبدأ التعارف بين البنات الثلاثة، واجتمعن على لعب السيجة التى لم تكن تعرفها سمارة، وأخذت بسيونة وفتحية فى تعليمها، وبدأ ثلاثتهن

فى التواصل الطفولى البرىء، يبدأ يومهن بصياح بسيونة.... تلك الطفلة المرحة ذات الدعابات المضحكة على فتحية، حتى ينتهى يومهن مع أذان العصر، وتتجه كل واحدة منهن الى عشتها، لخطورة تلك المنطقة، والتى تقع قبلى السكة الحديد والتى كانت الأنسب لجميع أشكال العمليات الإجرامية. فدائما ما يسمع قاطنو العشش فى ليالى الشتاء القارص، صرخات فتيات مغتصبات أو مخطوفات، لسكون تلك المنطقة البعيدة عن العمران. وكثيرا ما ترسل دوريات الساحل ببلاغات عن وجود جثث لفتيات مذبوحات، أو رجال اخترق الرصاص أجسادهم أو ما تبقى منهم بعد أن تنهش الذئاب و الكلاب الضالة جثثهم.

فى تلك البيئة عاشت سمارة ونشأت فى كنف غالية وشحاتة والشاكوش وصديقاتها بسيونة وفتحية، و بعد أن زرع شحاته وغالية الخوف من حياتها القصيرة السابقة، وترغيبها بالعطف و المال والاستقلالية فى حياتها الجديدة، وبعد أن بثا فى وجدانها أنه لا وجود لمعنى العيب أو الخجل، وما تريده وترغبه فهو لها و يجب أن تصل اليه و تأخذه بأى طريقة كانت، لأن الحياة قصيرة يجب الاستمتاع بها.

******

- صباح الخير يا ريس إسماعيل.

قالها شحاته منتصباً وبجواره الشاكوش أمام شيخ الحارة القابع خلف منضدته.

- إحنا جينالك حسب الميعاد .. لاقيت لينا حل لموضوع الجهادية.

نظر الريس إسماعيل الى محدثه شذراً وأجاب:

- جيبتوا جواب التسليم بتاع التجميع و المعلوم؟

- طبعا يا ريس . بس مش تقول لنا هانعمل إيه؟

اعتدل الريس إسماعيل فى جلسته، ممدداً بجسده المترهل على كرسيه وهو يشير الى فمه بإصبعى السبابة و الوسطى إشارة الى طلبه لسيجارة من شحاتة، والذى لف سيجارة بسرعة معطياً إياها الى شيخ الحارة الذى بدأ حديثه بعد أن زفر الدخان من فمه و أنفه قائلاً ببرود:

- إسمع يا جحش.. إنت تروح الأدزخانة، وتشترى سرنجة وتعبيها جاز وتغرسها فى صباع الجحش التانى، وبعد يوم هايورم صباعه، إوعى تستغبى و توديه للحكيم، وبعد يوم تانى الواد هايسخن وصباعه هايزرق، قوم إيه، رايح على الإستوباليا، هايسألك الحكيم، من إيه ده؟ هاتقول إن الواد شغال صبى ميكانيكى و مسمار دخل فى صباعه، هايقولك لازم نقطع الصويع، أحسن يعمل غرغرينة و يتسمم المحروس ويموت الواد، تعمله العملية ويقطعولوا الصباع و الجحش يطلع شرك وياخد إعفا من الجيش علشان عنده صباع ناقص.

استمع شحاته الى محدثه بإهتمام شديد، محركاً رأسه كمن يعى ما يُقال له وقد فتح فاهه و تركزت عيناه على وجه شيخ الحارة، حتى أنهى الريس إسماعيل كلامه مع آخر نفس من السيجارة، وعندها نزع شحاته طاقيته من على رأسه ملقياً بها الى الشاكوش الضامت بجواره كأن الامر لا يعنيه، فظهرت صلعته السوداء مع قليل من الشعر الأبيض أعلى أذنيه، مما أعطى له منظراً غريبا، زاد من غرابته احمرار عينى شحاته وجحوظهما من محجريهما وصرخ قائلا وهو ينحنى مقترباً من وجه الريس اسماعيل:

- تعرف ده....

وأشار شحاته بأصبعه الاوسط فى وجه الريس إسماعيل مع صوت الشهيق الطويل الصادر من أنفه واحمرار وجهه الاسمر الذى زاده

سواداً، وانكماش الجسد المترهل مندساً في مقعده، بعد أن أدرك خطاه في تقديره لشخص لم ينطق بإسمه سوى بكلمة جحش طيلة حديثه معه، وأخذ يزبد ويرغي متلعثماً بكلمات غير مفهومة، وهو لا يدرى ماذا يقول لهذا الشيطان الماثل أمامه، المتجاهل كونه موظفا يتبع الحكومة.

– طلع الحتة بخمسة أحسن أطلع روح أمك.

انتفض الريس إسماعيل وأخرج بسرعة خمسة جنيهات ليصرف هذا الشيطان الهائج من أمامه، وتناول شحاته نقوده ودسها فى جيبه ببطء ناظراً بجمرتين من نار الى عيني الريس إسماعيل زاعقا فيه وهو يغادر من أمامه:

– إصحى يا جحش.

وانصرف ساحبا الشاكوش من ياقة قميصه، الذى امتزج داخله الضحك و الزهو فى آن واحد. وانطلق الاثنان الى عملهما أمام محطة مصر ولكن فى مزاج عكر وتحفز من شحاته لأى كلمة شاردة او دعابة اعتاد عليها من سائقى العربات الكارو المحيطة بالمكان، الي أن جلس بجواره عبده العربجى قائلا:

– مزاجك متعكر ليه يا عم شحاته؟ قالها داساً فى يده سنة افيون... روّق نفسك يا معلم وقولي فيه إيه؟

دس شحاته سنة الافيون في جيبه وحكى ما حدث مع شيخ الحارة وهو يستشيط غضباً. فضحك عبده قائلا :

– ده شيخ حارة عاوز يتخوزق... سيبك يا معلم من الهجص اللى قالهولك... وأطرق صامتاً لبرهة ثم نظر الى شحاتة قائلا بمكر:

– طب واللى يحللك الورطة دى؟

– إنت هاتصيع عليا زى ابن الوسخة ولا إيه؟

- لا ورحـمـة سـيـدى أبو الضـرضـار... عـيب.... بس إسـمع... الشـاكـوش يروح المركـز بتـاعـهم اللى فى سـمـوحـة، بس أول مـا يقـوم الصـبح يفطر ملوحـة كـلابى، من بتـاعت الصـعـايدة، ومايشـربش مـاية خالص، لغاية ما يروح ويكشفوا عليه.

- ملوحة على أول الصبح، ده الواد يقع من طوله يا ابن المفترية.

- مـاهو ده المطلوب يا مـعلم، وعلى طول يبـقى شُـرُكْ، وياريت مـا يكونش متعشى كمان، علشان شكله يبقى مدهول ورايح فى داهية.

- بس ده ما يضرش الواد يا عبده؟

- ياعم دى وصفة متجربة، إتكل إنت على الله وربك هو الستار.

انفرجت أسارير شحاته قليلا من حديثه مع عبده العربجى وانتهى يومـه، وقفل راجعاً هو و الشـاكوش الى داره وقد أخـبره بالخطة فى طريق عودتهما الطويل، ومنعه من تناول العشـاء وسط اندهاش غالية التى مالبثت أن عرفت السبب بعد أن حكى لها ما حدث مع شيخ الحارة النصـاب، ومـا أخـبره به عـبده العـربجى. وفى الصـبـاح البـاكـر أيقظ شحاته الشاكوش، الذى أخذ فى تناول الملوحة الكلابى على الريق، وقام شـحـاته بإخـراج الأوراق من الصندوق الخـشـبى عـارضـاً إياها على الشـاكـوش ليتـأكد منهـا، ووضـعـهـا فى كـيس قماشى واسـتـقل الاثنان القطار الذى يصل بين محطة مصر وأبى قير.

ونزلا على رصيف محطة قطار سيدى جابر عابرين الطريق الترابى خلفها، واستمرا فى السير بين برك مياه راكدة والاكواخ المترامية على مسافات بعيدة تحـوطها حشـائش البوص. حتى وصلوا الى معسكر التجمع المحاط بسور يقف على بوابتيه الاثنتين فردا أمن بزى عسكرى.

- رايحين فين؟

نطقها العسكرى بنبرة آلية تعود عليها.

– الواد داخل علشان الفرز بتاع الجهادية.

– خليك إنت برة.... وإنت أدخل أقف مع زمـايلك فى الملعب اللى هناك.

وأشار العسكرى بيديه شارحا ما قاله لشحاته و الشاكوش.

دخل الشاكوش متأبطا الكيس القماشى الذى يحوى بداخله الأوراق، وكما أخبره العسكرى، انتظر مع مجموعة من الشباب فى ملعب المعسكر، وقوفا تحت الشمس الحارقة وبدأ فى التعرق بشدة وزاد عليه إحساسه بالعطش وجفاف حلقه، ولكنه كان ذا بنية جسدية قوية مَكّنَتُه من الصمود.

– أوقف فى الطابور منِّك ليه، وكل واحد يِجَهّز شهادة ميلاده وجواب الاستدعاء.

خرجت الكلمات من جسد متكور من اللحم الأسود، يرتكز على ساقين قصيرتين، تبين أنه الصول المسئول عن تنظيم الصفوف وترتيب البيانات والأوراق للمتقدمين، يتبعه جنديان، يحمل أحدهما كرسى خشبى ويحمل الاخر منضدة دائرية صغيرة، ووضع الاثنان الكرسى والمنضدة تحت شجرة ترمى بظلالها عليه، وبدأ أحد العسكر فى تجميع شهادات الميلاد من الطابور وسلمهم لذلك الآخر الذى يقف خلف الصول الجالس فى ظل الشجرة، وبعد أن نظم تلك الأوراق أخذ ينادى على أصحاب الشهادات فرداً فرداً، حتى سمع الشاكوش اسمه، فتقدم الى الصول:

– اسمك بالكامل وعنوانك.

– سعد محمود خليفة البغدادى، ساكن فى عشش الصفيح بسيدى

بشر قبلى.

– طب اخلع هدومك وخليك بالباس، وأوقف زى زمايلك هناك.

وأشار الى طابور من شباب عارى الا من خرقة تستر عوراتهم يقفون انتباه أمام حجرة، يقف عسكرى آخر أمام بابها.

بدأت الشمس تلفح جسد الشاكوش الذى كان يتصبب عرقا وزاد من معاناته وقوفه عاريا وإحساسه الشديد بالعطش، وجفاف حلقه الذى أثر على صوته، حتى دخل تلك الحجرة، فوجد طبيباً وضابطاً يتصفحان أوراقه، ولم يستطع الشاكوش الصمود أكثر من ذلك بعد أن أحس بتحرك كل ما يحيط به بسرعة، فسقط مغشيا عليه بمجرد أن نظر اليه الطبيب وبدأ يحدثه.

لم يدر الشاكوش بنفسه إلا وهو ممدد على سرير يتوسط عنبر مستشفى المواساة، وبعض الخراطيم الشفافة و التى تنقل اليه بعض السوائل، مثبتة فى ذراعه، وشحاته يجلس بجواره فرحا.

– مبروك يا ابن العيانة، طلعت شُرُكْ.

– وأنا هافضل راقد فى السرير كتير يا عم شحاته؟

– لا يا جَلَنْف، بكرة الصبح ناخد التقرير ونقدمه فى المعسكر وخلاص. بس لازم أسيبك علشان ممنوع أفضل معاك، وهاجيلك بكرة من الفجر، وما تقلقش، الحكيمة ظبّتها وروقتها، وهاتجيلَك أكل كويس. خللى بالك من نفسك، سلام.

وغادر شحاته المستشفى عائداً الى سيدى بشر، وكانت سعادة غامرة لغالية وسمارة التى فهمت بعقلها الصغير مما يدور حولها بأن الشاكوش كان سيعمل فى مكان يشبه السجن.

– خدى يا غالية المهموز ده وروحى السوق بكرة علشان تجيبى

فرخة وشوية فاكهة، الواد رايح راس فى راس، وخدى معاكى سمارة ، عاوزك تدلعيها وتجبيلها كام هدمة جديدة. وبالمرة روقى نفسك شويه.

خرجت سمارة بعد أن نادت عليها كل من بسيونة وفتحية ليلعبا معا، واختلى شحاته بغالية التى كانت منهمكة فى غسيل أكواب الشاى، ووضع البراد على وابور الجاز، عندما فاجأها شحاته من الخلف واضعا يده على مؤخرتها، فالتفتت اليه سريعا صارخة بدلال:

– إختشى يا راجل .. إحنا لسه فى أول النهار .. أحسن البت تدخل علينا وإحنا ماسكين فى خناق بعض.

– وماله... ما تدخل ، يعنى هى مش فاهمة حاجة! ده إنتى معلماها القرد مخبى ابنه فين.

– آه والله يا شحاته، البت جسمها فاير على الآخر، وشاكلها هاتكبر بدرى، دى بقالها معانا يمكن تلات سنين واللى يشوفها يقول عندها تلاتاشر ولا أربعتاشر سنة.

وتساءل شحاته باندهاش عن عدم تذكرها لأهلها ونسيانها لهم، وأجابته غالية بتفاخر:

– ما أنا خلاص... رغبتها من أهلها، ومفهماها إنها لو رجعت هايدبحوها بعد ما يقطعوا لسانها ويرموها فى الترعة.

– يقطعوا لسان إيه يا ولية ؟! لسانها اللى فوق ولا اللى تحت؟!

قالها شحاته فاتحا فمه من الضحك، ظاهرا أسنانه المتعرجة البنية اللون، ناظراً الى غالية التى أردفت:

– ما تقلقش خالص، أنا فاهمتها يعنى إيه يطاهروا البنت، وإنهم كانوا عاوزين يعملوا كده معاها علشان تكبر بسرعة ويجوزوها ويخلصوا منها.

– ده إنتى بت حرام . وصدقتك؟

– أمال إيه .. أصل أنا حنينة معاها خالص، ومابتأخرش عليها فى حاجة، ده حتى الاكل اللى ماتعرفهوش جبتهولها.

– والله برَاوة عليكي .. قالها شحاتة رافعاً جلبابه ، واضعا طرفه فى فمه قائلا:

– طيب ما تيجى آشوف ابن القرد اللى مخبياه.

– طيب تعالى أوريك القرد الأول وبعدين أوريك ابنه.

وانقض عليها شحاته ، ساقطا بها أرضا، كاشفا ملابسها عن نصفها السفلى ملتحما بها بعنف وقوة مع ضحكات غالية ودلالها، ولم ينتبهوا من سكرات النشوة بدخول الصغيرة سمارة بهدوء ناظرة الى غالية الشاخص وجهها أرضاً، والتحام شحاته المنتصب على ركبتيه ، ممسكا بتلابيب جلبابه فى فمه. وانسحبت الصغيرة بهدوء كما دخلت، تتصبب عرقاً بعد أن سقط آخر حاجز لفطرة الصغيرة، التى انتهكت منذ ثلاثة أعوام مضت.

– إنتىَ رجعتى ليه يا سمارة ؟

قالتها فتحية بإستغراب بعد أن وجدت وجهها مشوياً بحمرة شديدة واضطراب واضح على جسدها الصغير المرتعش.

– أصل عم شحاتة بيعمل حاجات مع غالية.

لم تفهم الصغيرتان فتحية وبسيونة كلمة مما قالته لهما سمارة وبدآنا فى الاستفسار عما رآته صديقتهما التى بدأت فى وصف ما رأت وسرد ما قالته لها غالية سابقا عن وصف جسدها، وأنصتت الصغيرتان باهتمام وسعادة غير مفهومة لهما بلذة الحكى من سمارة. وبعد أن انتهت سمارة من وصف ما رأت، نظرت الصغيرتان الى

بعضهما البعض، وأخذتا في الضحك و التندر على ما قالته غالية لها، وتفسير ذلك الوضع الذي شاهدته منذ قليل:

- ما أنا أمي و أبويا كل شوية بيعملوا الحاجات دي، وأنا وأخواتي نايمين وسامعين كل حاجة، دي حاجة عادي خالص.

و أكملت فتحية كلام بسيونة قائلة:-

- كل الستات و الرجالة بيعملوا كده، ده حتى جيرانا ساعات كتير بأسمعهم وهما بيعملوا كده، بعد ما بيتخانقوا مع بعض، بس بصراحة .. حلوة قوي بوابة المتولي دي يا سمارة.

و غرق الثلاثة في نوبة من الضحك، لم يقطعها سوى تساؤل فتحية المفاجيء عن إمكانية تشابه أعضائهن، ونفي بسيونة بهزة من رأسها بعدم معرفتها هي وسمارة التي أعقبت بوصف تفصيلي لما رأته وحكته لها غالية، وما يفتقدينه في أنفسهن من صغر و اختلاف الأعضاء الكبيرة المميزة لغالية. وبدأت كل منهن بخلع ملابسها والنظر الى نفسها، ثم أتبعن ذلك بالنظر الى بعضهن البعض للمقارنة فيما بينهن، واستكشاف هذه المناطق التي تمدهن باللذة بمجرد الحديث أو النظر اليها.

- أنا خايفة أحسن جد يشوفنا . قالتها فتحية ملتفتة يميناً ويساراً.

- تعالوا نروح ورا الجبل.

ردت بسيونة ووافقتها سمارة، واتجه ثلاثتهن الى التبة الرملية المحاطة بسيقان البوص المتنامي حول برك المياه الراكدة، وأخذ الثلاثة بحرية في اكتشاف أجسادهن، وتحسس تلك المناطق بأصابعهن الصغيرة المرتعشة.

*****

انتهى شحاته من غالية، ورقد الاثنان على الأرض لإلتقاط الأنفاس بعد هذا اللقاء الذى أتى بنتيجته لكل من الثلاثة، وجلس شحاتة يلف سيجارتين من علبته كالعادة ونظر الى غالية المنتشية قائلا:

- إحنا لازم نعّزل من العشش الصفيح يا بت، ونبتدى نقب على وش الدنيا زى الناس النضيفة.

انتبهت غالية باستغراب ممزوج بالخوف و الفرح في آن واحد قائلة:

- إزاى يا أخويا ! أنا مش فاهمة!

- يا بت الجزمة، استنى لما أخلص كلام عشان تفهمى، إشمعنا لما بترقدى بتسكتى خالص، إهمدى شوية....وسحب نفساً عميقاً من سيجارته وأكمل قائلا:

- أنا بفكر إن إحنا نعّزل ونسيب الحتة المعفنة دى ونسكن فى بحرى.

- شِلِ الله يا مرسى يابو العباس .. قالتها رافعة يديها الى السماء.

- إحنا نشترى .... وقطع كلامه بدخول سمارة .... أهلا سمارة .. مالك يا بت ..لونك مخطوف كده ليه ؟ فى حد ضربك، قولى وأنا أفتحلك كرشه.

قالها شحاته بعصبية وخوف صادق على الصغيرة التى أجابت:

- لا يا عم شحاته ، ماقيش حد يقدر يقرب منى، بس أنا جعانة يا غالية.

قالتها وارتمت على الكنبة الوحيدة فى عشة غالية.

- هو ده اللى مقريفك يا موكوسة، وضحكت غالية ونهضت مسرعة لإعداد طعام الغداء لثلاثتهم.

و تناول الثلاثة الغداء، وأكلت سمارة بنهم شديد، ونهض شحاته الى

عشته مدعيا النوم، و بدأت غالية فى إعداد الشاى لها ولسمارة التى سرعان ما غطت فى نوم عميق، ووجدت غالية نفسها وحيدة وسط عشتها تحمل كوبين من الشاى، فقررت الذهاب الى شحاته، الراقد على الأرض مستنداً بظهره الى كنبته يفكر فى سفريته القادمة قريبا، ونقرت غالية مستاذنة فى الدخول قائلة:

– قولت أجى بكوباية الشاى يمكن لك مزاج فيها قبل النوم بدرى.

– جت فى وقتها، أمال سمارة فين؟

– راحت فى سابع نومة .. مش عارفة، شكلها تعبان شوية!.

انتفض شحاتة عند سماعه بتوعك الصغيرة، مؤكداً على غالية أن تذهب بها الى المستشفى، ولكن غالية طمأنته بأنها بعد كوب من الليمون الساخن ستنهض مثل الفرسة، ثم غيرت دفة الحوار الى موضوع العزال:

– أنا بفكر إن إحنا نحط القرشين اللى معايا على اللى معاكى ونفتح قهوة كبيرة، ونشترى بيت بعفشة ميه، بدل اللى الرايح واللى جاى شايفنا مقرفصين فى الخلا.

– والله فكرة، طب وشغلى ؟ هاعمل فيه إيه ؟ أبطل ؟!

قالتها غالية بمكر أنثوى ناظرة الى عينى شحاته، كمن ينتظر رداً محدداً له وقع فى النفس، ولكن نظرة شحاته الثاقبة أخرستها، وأعقبها بقوله:

– إنسى اللى فى دماغك .. أنا طول عمرى حر .. ومش على آخر الزمن تيجى مره تحوتن عليا، عاجبك زى ما احنا يبقى تمام، مش عاجبك، بقى إنتى من سكة وأنا من سكة. آخد البت و الواد وكل واحد يشوف مصلحته فين.

انتفضت غالية كمن فوجئت برد شحاتة، وظهرت دمعة سريعة تتراقص داخل مقلتيها:

- أنا ما كانش قصدى يا شحاته، أنا قولت بدل ما إحنا هانتشارك فى قهوة وهانعيش مع بعض فى بيت واحد، علشان ماحدش يتكلم علينا فى الحتة الجديدة....

- طيب إعدلى نفسك، وسيبى الناس وكلامهم عليا أنا، وماتحطيش فى دماغك الكلام العبيط ده، ولما أجى من السفر هانرتب أمورنا ولما نشوف.

ردت غالية بصوت ضعيف ممتزج بالخنوع والاستسلام، على النقيض تماما من الدموع المتساقطة و تلك اللهجة المستكينة منذ برهة قليلة :

- إنت بتروح فين يا شحاته ؟

- وإنتى مال أمك .. قومى غورى على مطرحك..عاوز أريح وأنام علشان أروح للشاكوش الفجر، وماتنسيش تجيبى الحاجة بكرة وتعملى له أكلة محترمة.

- بس أنا عندى زبون بكرة سقع فى الصبحية.

- جيبى الحاجة وجهزى الأكل وروحى لزبونك بعد المغرب ..ما حبكتش الركوبة الصبح.

ونهضت غالية قائلة بغضب:

- تصبح على خير .

- وإنتى من أهله..

قالها بعصبية ووضع نفسه على الكنبة مستدعياً النوم، حتى سمع أذان الفجر، فنهض حاملاً وعاء الماء، غاسلاً وجهه أمام الباب. متنسما

هواء الفجر البارد المحمل برائحة اليود القادمة من البحر. وأشعل قليلا من الحطب الجاف ليجهز لنفسه كوبا من الشاى مع أنفاس من سيجارته التي تمثل له شق الريق كل يوم. ثم اتجه الى محطة القطار مستقلاً إياه فى طريقه الى الشاكوش.

قرح الشاكوش برؤية شحاته أمامه ، و نهض على قدميه ليغادر لولا يد شحاتة التى أوقفته بسرعة وهو يلتفت يميناً ويساراً بحذر مشيراً له بالصبر، وتذكيره أنه قد أتى المستشفى وهو مريض، ويجب عليه أن يتقن دوره، و وجوب انتظارهم للدكتور حتى يتسلموا منه التقرير الذى سيعفى الشاكوش من الخدمة العسكرية. وتصنّع الشاكوش التعب، واستند الى ذراع شحاته وهبط الاثنان لمقابلة الطبيب، الذى سلم شحاته بدوره التقرير الطبى الذى يفيد بإصابة الشاكوش بخلل مزمن وعدم الكفاءة الوظيفية للكلى، مما يستتبع ضرورة الراحة و العلاج المستمر و المتابعة كل ستة أشهر.

انطلق الاثنان الى منطقة معسكر سموحة، وتخفى الشاكوش خارجا خلف شجرة من الأشجار المحيطة بسور المعسكر، ودخل شحاته بورقه الى الصول مدعيا أن الشاكوش راقد فى المنزل لا يستطيع الحراك، معطيا إياه التقرير، وتناول الصول الورقة الممهورة بخاتم المستشفى ودخل بها الى قائد المعسكر الذى وقع فى دفتر أمامه بعدم لياقة الشاكوش وأردف أنه بعد شهر يجب عليه أن يأتى ليتسلم شهادة الإعفاء من التجنيد.

خرج شحاتة وسعادة غامرة تسبقه الى الشاكوش، وانصرف الاثنان متجهين الى سيدى بشر ، تستقبلهما غالية بالزغاريد و الأحضان والدعاء بسلامة الشاكوش، مما أخرج أهل العشش من جحورهم

ليتساءلوا عن الأخبار السعيدة، ومشاركتهم فرحتهم. وقد أبدعت غالية فى تجهيز وليمة للشاكوش فرحاً واحتفالاً به، مما أسعد شحاتة الذى وجد أمامه مائدة زاخرة بأطباق من الشوربة التى يتصاعد البخار منها ورائحة الثوم بالزبد العائمة على طبق الملوخية بجوار طبق كبير من الأرز الابيض تعتلى قمته فرخة كبيرة ذهبية اللون.

تسامر الأربعة بعد تناول الغداء مع أدوار الشاى المتكررة، وسرد تلك الخطة التى رسمها لشحاته عبده العربجى، وحَكّى الأحداث مراراً وتكراراً من الشاكوش تارة ومن شحاته تارة أخرى ، واستمرت السهرة بين التندر و الضحك بين الأربعة الذين يمثلون شريحة من قاطنى مجتمع العشش الصفيح، ويجدون ما يرسم السعادة على وجوههم حتى ولوكانت خطة شيطانية يستطيعون من خلالها الالتفاف على القانون، وفى أحيان كثيرة القيام بعمليات نصب على خلق الله، وعلى الرغم من تلك العشوائية فى المعيشة ، إلا أنه بالتدقيق والملاحظة يتراءى أنه مجتمع منظم فى الداخل، بالتوحد والانعزالية المناقض لمفهوم العشوائية ، ربما لإيمانهم أن "من بيته من زجاج"، أو حتى فى السلوكيات الغريبة من وجهة نظر البعض، تصبح عادات راسخة وسلوكاً متبعاً، ومتعارفاً عليه، ونهجا حياتياً لمجتمع لا يجد غضاضة فى فعلها، لرسوخها بعد فترة من التكرار. ولا ينفك هؤلاء البشر من ابتدا ع أساليب و أحداث تجمعهم بها فرحة عابرة فى ظل الظروف الحالكة التى يعيشونها، على الرغم من عدم الاهتمام فى أحيان كثيرة بالعائق المادى، فها هو شحاته وأيضا غالية، لا يضيرهما السكون فى البيت دون عمل لمدة أسبوع أو أكثر وتوافر ما يكفى معيشتهم دون شعور بالحاجة، أو القلق من الركون الى الراحة لفترة قد تطول أو

تقصر، وهذا نمط جميع ساكنى العشش، مما يتنافى مع فكرة أن العامل اليومي الذى بمجرد أن يستكين للراحة يوما واحدا، يفقد دخل هذا اليوم.

******

أعطى شحاته أجازة للشاكوش لكى يسترد عافيته وصحته، وكمكافأة له على اتباع تعليماته، والخروج من معضلة الجهادية. ولم يستسلم الشاكوش للركون الى البيت، فقد كان يخرج فى أحيانٍ كثيرة ، متنزهاً بين طرقات العشش، وفى أحيانٍ أخرى يستكين بجوار الراديو ليستمتع بالراحة بجوار استمتاعه بما يلقيه عليه هذا الجهاز الصغير من معلومات وثقافة وأحداث، كان يفتقدها على نصبة الشاى مع شحاتة.ولم يمنعه استمتاعه بالراحة من متابعته لغالية وهى تتحرك أمامه جيئة وذهاباً، وتلك التكويرة ذات الفلقتين من جسدها تتحرك يميناً ويساراً مع انتقالها فى أركان العشة. ومع ما يلى ذلك من استئذانه فى الذهاب الى عشة شحاتة ليحضر علبة الدخان الخاصة به، ويختلى بنفسه ويفعل ما يفعله المراهق الصغير سراً حانقا على غالية التى يعرف تماما رفضها له لخوفها من غضب شحاتة، الذى يعتبر صمام أمان ، يمنعه من الانجراف الى غالية لتسحبه الى مجون العواهر. وكثيراً ما أخبره شحاته أمامها بالبعد عن الحريم فى هذه السن، الى أن يستطيع أن يكسب رزقه وحده، فعندها له الحق فى أن يفعل ما يشاء حتى و إن أصبح زبونا دائما فى شارع طيبة.

وكعادتها كل يوم بعد الظهر، تجتمع سمارة مع بسيونة وفتحية خلف التبة الرملية ، لاستكشاف لذات الاجساد الصغيرة، والانتقال الى ما بعد مرحلة الاستكشاف، ولم تنتبهن فى خضم ملاعباتهن الى

الشاكوش، الذى أتاح له القدر فرصة رؤية البنات الصغيرات خلف التلة عاريات، وهو يسير متنزهاً بسيجارته المعلقة فى فمه بين سيقان البوص و الحشائش، ويصل الى سمعه أصوات الفتيات تاتيه من خلف مرتفع الرمال المنتصب على يمينه بين غابة الهيش الكثيفة، وفوجىء الثلاثة بالشاكوش وهو يقف فوق رؤوسهن، ومنهن الشالحة جلبابها عند كتفيها، والأخرى تاركة لباسها الداخلى بجوارها ، راقدة على الأرض، و الأخرى ممسكة بهذا البروز الناتىء من صدرها، وأسقط فى أيديهن.

- إيه اللى إنتوا بتعملوه يا صايعة إنتى وهى؟

- ولا حاجة يا شاكوش .... ده إحنا حزقتنا الميه بس... ردت بسيونة بتلعثم واضح و بإنتفاضة وذعر سيطر عليهن الثلاثة، اللاتى بدأن فى ارتداء ملابسهن بسرعة.

- ماتخافوش، أنا مش هاقول لحد خالص .. ده هايبقى سر بينا إحنا الاربعة.

قالها الشاكوش مطمئنا لهن وبصوت يوحى بالصدق، وأيضا الظفر بوليمة تحتوى على ما لذ وطاب مما كان يشتهيه خياله بعيداً عن غالية وشحاتة.

- تعالوا .. ماتخافوش .. أنا هاوريكوا حاجة حلوة خالص، بس الأول أشوف الحاجات بتعتكوا، ونظر الى بسيونة التى كانت أكبر سنا وبدأت مظاهر البلوغ عليها. وبدأ يتحسس جسدها، وسمارة وفتحية ينظران اليهما بخوف و توتر، حتى وجدن منتصف جلبابه يرتفع أمامه، فبدأ فى رفع ذيل جلبابه وخفض لباسه التحتى، فإنزعجن ثلاثتهن من هذا الشىء النابض الذى لم يرينه من قبل بهذا القُرب . وبدأ الشاكوش بمداعبة بسيونه وهى واقفة بين يديه فى استكانة وذعر محفوف بمتعة

وألم. ويبدأ الأربعة فى الولوج الى عالم آخر من المتعة الجسدية... عالم يندمج فيه معنى الذكورة البكر مع فتيات ينتقلن الى مرحلة الصبا، بفضولهن عن ماذا يدور بين الرجل و المرأة ومما يرونه بين آبائهن وأمهاتهن كل ليلة.

وانتهى الشاكوش مما يفعل بهن واحدة تلو الأخرى، بعد أن طغى إحساس النشوة على إحساس الألم، فمع معرفة الشاكوش وخبرته البصرية والسمعية بما يفعله شحاته مع غالية، وحكايات العربجية عند تناولهم الشاى و أحاديثهم عن فحولتهم، وما يؤكد ذلك من قصص الفراش ، التى لا يستنكفون من سرد أدق تفاصيلها. أعطى له خبرة جاء الوقت ليمارسها مع هؤلاء الفتيات.

ويبدأ الثلاثة فى الانصراف فرادى كما نصحهن الشاكوش، كى لا يلفتن الانظار اليهن وهو يتبعهن بعد برهة قصيرة ناظراً اليهن وهن لا يقوين على ضم أرجلهن. وهن سائرات الهوينى بين حين وآخر تقف إحداهن لتتمالك قواها حتى وصلت كل واحدة منهن الى عشتها صامتة.

وهكذا اجتمع الأربعة على صداقة شديدة، تربطهم رغبة واحدة... المتعة التى يعيش الرجال و النساء طيلة حياتهم فى البحث عنها . تلك المتعة التى تجعل الزوج يهجر زوجه . ويدفع الزوجة الى مطارحة الغرام لفحل غريب، أياً كان للوصول الى تلك الكيمياء التى تخدر الجسد بأقوى من نشوة الهروين، وتحلق به الى عالم السعادة والهدوء، وانتظم الأربعة فى تلك اللقاءات التى أعطت للصبايا إحساس الأنوثة و متعة الخضوع لذكر يلبى احتياجاتهن، وتشبع الصبى بإحساس المسئولية والرجولة فى تلك المرحلة ، مما رسخ الارتباط الضمنى بينهم ، على

الرغم من ميل الشاكوش الى بسيونة ، التى كانت تتصف بطابع مرح، و الثرثرة الممتعة التى كانت تحكى بها اليهم فى جلساتهم الممتدة ما بين الظهيرة حتى ما بعد العصر.

وقد لاحظت غالية هذا الود بين الشاكوش والبنات الثلاثة، فأخبرت شحاتة الذى سأل بدوره عن بلوغهن، وأوضحت له أنه قد بدأت مظاهر البلوغ تطفو على أجسادهن الواحدة تلو الأخرى، حتى جاء اليوم الذى تحدثت فيه غالية الى سمارة بأنها فى انتظار وصول حدث سيغير حياتها، وينقلها من مرحلة الطفولة الى مرحلة الأنوثة، وأخبرتها بفجاجتها المعهودة، عن الدماء وفترة الحيض وكل ما يجب أن تعرفه البنت عن هذه التغيرات... سكبت لها غالية كل هذا مرة واحدة كعادتها المتعمدة فى أن تزيح حواجز كل معانى البراءة و الحياء، وهى لا تعلم أن ذلك قد تم بالفعل منذ زمن...... منذ رؤية أم محروس وهى تصول بحد الموسى بين أفخاذ البنات .... منذ ان حدثتها غالية عن الجسد ...منذ أن رأتها وشحاتة عرايا يبحثان عن المتعة.... و منذ أن عرفت كيف تكون أنثى بين يدى رجل مع الشاكوش.

******

– أنا لقيت بيت من بابه فى بحرى ، جنب سيدى المرسى.

كلمات خرجت من فم شحاتة، الناظرة عينه الى فراغ الغرفة، مع سحب من الدخان الأزرق الصاعد من أعماق صدره، تفوح منه رائحة الخمر الردىء من خمارة عازر.

– يعنى إنت طول الوقت قاعد تمخمخ لوحدك يا شحاتة ! علشان كده اليومين اللى فاتوا كنت سرحان ...طيب كنت تشركنى معاك.

أجابته غالية وهى تمصمص شفتيها المكتنزتين، ساحبة من بين

أصابعه تلك السيجارة الغليظة، أعقبتها بجرعة خمر.

- هو إنتي فاكرة إنك عندك دماغ يا ولية ..إنتي عندك حاجة تانية خالص.. وضحك بشدة حتى امتقع وجهه وبدأ فى السعال الذى تقافز لعابه خارج فمه أعقبها بقوله ..إنتي عندك مبولة الحضرى كلها.

وارتمى على الأرض فى نوبة من الضحك، يخبط راحة يده على رجله الممددة أمامه، من أثر جرعات الخمر التى تسرى فى دمه، غير عابىء بتلك النظرة الحانقة التى رمقته بها غالية ، التى أحست بالمهانة لأول مرة من كلمات شحاته ، ولكنها كامرأة خبرت كيف تتعامل مع الرجال، ضحكت مسايرة دعابته السمجة، ناظرة باستكانة ودلال مزيف، موافقة على رأيه ، متناولة زجاجة الخمر من يده، ساكبة إياها فى جوفها مباشرة، حتى انتفض شحاتة هائجا عليها كالاسد فى موسم التزاوج، مثاراً من حركة غالية الماكرة، وبدأ الاثنان فى ممارسة الجنس، تحاول غالية أن تنسى إحساسها من إهانة شحاتة بالتأوه والغياب فى اللاوعى، مما زاد من رغبة شحاتة الغائب عن الوعى.

واستيقظ الاثنان على صوت طلقات نارية آتية من الساحل، كالعادة عند مطلع الفجر، ونهضت غالية متجهة الى عشتها لتطمئن على سمارة، خشية استيقاظها على صوت الطلقات النارية بعد اتفاق شحاته معها على أن تبدأ فى حزم حوائجها لمغادرتهم غداً آخر النهار وانصرفت وهى تومىء برأسها متمتمة "لما نشوف يا راجل يا خروف". ونظر شحاته الى الشاكوش المسجى على الأرض فى ركن قصى من الغرفة، سائلا له:

- إنت صاحى يا ابن الحايحه؟

فلم يرد الشاكوش بالرغم من سماعه كل ما دار بينه وغالية.

شقشق الصباح وهبط نوره على جدران صدنة حديدية، من طول انتصابها فى وجه أمطار الاسكندرية الغزيرة، وبدأت الحركة تدب فى جوانب العشش الصفيح واستيقظت سمارة من نومها على حركة سريعة لغالية التى كانت تجوب أركان العشة بهمة ونشاط، محدثة جلبة من أصوات الأوانى النحاسية والأكواب التى ترُصّها بعناية فى صندوقين خشبيين كبيرين، واندهشت سمارة من هذه التحركات، وسألت غالية عن ذلك النشاط المفاجىء، فشرحت لها غالية عن تلك المرحلة الجديدة التى ستبدأ من نهاية نهار اليوم . وكيف أنها اتفقت مع شحاتة على البدء فى حياة جديدة، وهما يتناولان طعام الافطار معا.

– شوفى يا سمارة إنتى دلوقت مابقتيش صغيرة، إنتى لو اتجوزتى تجيبى عيال، إحنا هانبدأ حياة جديدة فى بحرى، عاوزاكى تنسى كل حاجة من أول ما اتولدتى لغاية قعدتنا دى، إوعى تفكرى أو تبصى وراكى.. مافيش حاجة بترجع، بس المهم إننا نعيش النهاردة.. بقرشك تقدرى تعملى كل اللى نفسك فيه، ومن هنا و رايح إنتى هاتنزلى معايا الشغل .. ولازم قرشك تِعِينيه بنفسك وماحدش يعرف قرارك خالص.... الزمن عامل زى شتا اسكندرية... ممكن تلاقى الشمس طالعة والدنيا حلوة، بس فجأة تلاقى السما ضلمت وهبت الزعابيب وغرقانة فى الميه... إوعى تدِى أمانك لحد حتى لو كان رَاجلِك، ودى أهم حاجة، طول مامعاكى قرش، مافيش راجل يقدر يتحكم فيكى، أنا لفيت كتير وخدمت فى بيوت بهوات وباشوات، وكلهم طينة واحدة، الراجل عاوز الست تبقى على الحديدة، علشان تحس إنها ملهاش متْوى غيره، ويقدر يتحكم فيها طول ما هى محتاجاله . حطى الكلمتين دول حلقة فى وِدنك، وإوعى تنسيهم.

– طيب أنا هاشتغل معاكى إيه؟

– كل حاجة تجيب فلوس ماتقوليش لأ عليها . وإنتى مش صغيرة دلوقت، وتعرفى تاخدى كل اللى إنتى عاوزاه، وأنا هاكون معاكى، وهاشرّبك الصنعة على أصولها . وخلى بالك، مالكيش فى الدنيا غيرى، يعنى ولا شحاته ولا الشاكوش.

– طب وصحباتى فتحية وبسيونة؟

انزعجت غالية من تساؤل سمارة، وأردفت بعصبية قائلة:

– أنتى مافهمتيش يا بت اللى قولتهولك ؟.....إنسى كل حاجة... خليكى فى اللى جاى . اتفقنا؟!

وأومأت سمارة برأسها الى غالية ونهضت خارجة لتلهو لآخر مرة مع صديقاتها، وتجمع الثلاثة فى نفس المكان، وبعد أن أخذت منهن قسم الكتمان، و وعود بعدم إفشاء الأمر، أخبرت سمارة كلاً من صديقتيها بما سيحدث، وتواعد الثلاثة على اللقاء سراً عندما تحين الفرصة . ففتحية تعمل الآن باليومية فى شركة إدفينا، بعد أن أنهت السنة الثالثة من التعليم الأساسي، وتقوم بتقشير الخضار والفاكهة فى مصنع التعبئة بالرأس السوداء. وبسيونة ترافق أمها الى المستشفى الميرى، لتعمل على مسح الأرضيات والحمامات.

وبدأن فى التحدث عن الشاكوش وما يفعله بهن، وكيف سيتم اللقاء معه، على الرغم من عدم ممانعتهن من تجربة بعض العلاقات الاخرى، فها هى فتحية تلاحظ نظرات مراقب العمال فى الشركة الى جسدها البض، وتلك بسيونة، تقيم علاقة ناقصة مع غفير بالمستشفى، ولكنهن أجمعن على أن الشاكوش هو الرجل الوحيد الذى زلزل كيانهن من الداخل بمعنى الكلمة، وضحكن الثلاثة ولم تقف ضحكاتهن إلا على

مفاجأة الشاكوش لهن ضاحكا هو الاخر، بعد أن سمع حديثهن عنه، واعداً إياهن بأنه لا يستطيع ان يبتعد عنهن، وبعد أن تستتب الأمور سيرتب كيفية لقائهن . وبدأ احتفال الثلاثة بعد أن امتنعت بسيونة لطبيعة كل شهر، ولكن الشاكوش أبى أن يحتفل دونها، والتى سحبها من يدها نازعا عنها ملابسها الداخلية، رافعا جلبابها حتى كتفيها، متملصا من فم فتحية وسمارة، واضاعاً بسيونة على حِجرِه مداعباً الاثنتين بكلتا يديه.

زعق شحاته على الشاكوش وسمارة عدة مرات، حتى خرج الشاكوش من خلف التلة الرملية و لحقت به سمارة بعد فترة، مشيراً له بحمل تلك الصناديق على عربية الكارو الواقفة أمام العشة، وبجوارها غالية التى أخذت سمارة تحت ذراعها ضامة إياها فى دفء، وخرجت النسوة من العشش يتساءلن عن الوجهة الجديدة لغالية، مرددين بتهكم بأن هذه البلد أحسن من غيرها، ولكنهن أطبقن صامتات، واتجهت كل واحدة مطأطئة الرأس الى عشتها، بعد أن زعقت غالية رافعة ذراعها الايمن عالياً، ممسكة زندها بيدها اليسرى مشوّحة يميناً ويساراً :

– الرزق يحب الخفية يا واسعة منك ليها، وكل مرَة تتلجم أحسن أحط الشبشب فى حنكها وتبقى زيطة قبل مانمشى.

وتحركت العربة الكارو بعد أن انتهى الشاكوش من وضع الحاجيات عليها، وركب هو وسمارة فى مؤخرة العربة، وأرجلهم متدلية تتأرجح مع هزات الكارو، وأبصارهم متعلقة بجدران العشش المتراصة بجوار بعضها البعض، والتى بدأت فى الغوص فى باطن الأرض كلما ابتعدت العربة، يَحدُها من اليسار قرص الشمس الهابط فى صفحة ماء البحر.

وأمام باب خشبى كبير ذى ضلفتين، منغرسة فيه رؤوس مسامير

ضخمة فى تراص محسوب، كبوابات قلاع العصور الوسطى، يحده جداران يميناً ويساراً من الحجر الأبيض الملوث، والذى تحول بفعل الهواء المشبع برزاز الماء المالح الى اللون الرمادى، وقفت العربة الكارو بأمر من شحاتة، وهبط كل من عليها شاخصين أبصارهم الى هذا المبنى ذى الطابقين والنوافذ الخشبية الضيقة و المتراصة على مسافات منتظمة. و أخرج شحاتة من صديريته مفتاحاً أسود كبيراً وضعه فى ثقب البوابة التى سرعان ما انفرجت مصحوبة بصرير مزعج لفت أنظار السائرين فى تلك الحارة، والجالسين على قهوة التابعى الواقعة فى منتصفها وقد تفحصت أبصارهم هؤلاء الوفود الجدد، وسرعان ما التف الجيران مهنئين ومباركين تلك الأسرة الجديدة، داعين لهم بمباركة المكان، وتتقدمهم الأيدى للمساعدة فى إنزال الصناديق الخشبية، والتى بدأ الشاكوش على الفور فى حملها الى صحن الدار الذى وقف فى منتصفه مشدوهاً هو وسمارة التى دلفت الى الداخل وراءه تحمل صندوقا هى الأخرى، يلتفون حول بعضهم البعض بعد أن انضمت اليهم غالية يتفحصون وأفواههم فاغرة من كبر تلك المساحة، وتصميم السلالم المنتهية عند الدور الثانى بممر طويل، يُفتح عليه أبواب الغرف الأربعة، وغرف دورات المياه التى لم يحلم أي منهم أن يأتى اليوم الذى يمكن أن يقضى أحدهم حاجته فى مكان محاط بأربعة جدران وباب مغلق عليه، دون تلصص الأعين، وتَلفُتْهم يميناً ويساراً للبحث عن حجر لينهى حاجتهم. خرج الجيران وأصواتهم مرتفعة بالدعاء تاركين الأربعة يتفحصون المكان و يستكشفونه، ونظرات الإعجاب متجهة الى شحاتة الذى أحس بزهو الظافر المنتصر، واتجهت سمارة الى حجرة كبيرة فى الدور الأرضى ذات مطل على مساحة خارج البيت، قائلة بإندهاش:

– يااااااه، أنا عمرى ما حلمت إنى أسكن فى بيت بالوسع ده.

– طب إطلعى فوق وشوفى مكان المنامة بتاعتكوا .... دى حاجة فلّى خالص.

وقفز الثلاثة كل واحد منهم متجه الى غرفة ليسبق الآخر فى الاختيار، والشهقات الخارجة من أفواههم تتصاعد بين الدخول لإحدى الغرف والخروج منها، وشحاته يشاهد كل هذا وهو قابع فى وسط الدار ضاحكا. وبعد أن فرغ كل من غالية والشاكوش وسمارة من اختيار غرف نومهم، و تعليقاتهم المازحة مع شحاتة، تجمع الأربعة فى صحن البيت ملتفين حول منضدة نحاسية مرتفعة قليلا عن الارض، وقد نقر شحاته بأظافره المتسخة عليها كمن يهم بإلقاء خطاب:

– إحنا دلوقت داخلين دنيا جديدة ...لازم ننسى خالص الوساخة اللى كنا عايشين فيها ونبتدى حياة نضيفة... ورمق غالية بنظرة حادة وأردف... يعنى ياغالية تبطلى شغل الهلس بتاعك وتنضفى وتنقى زباينك، مش كل من هب ودب تفتحيلوا رجلك عشان كام سحتوت. وإنتى يا سمارة تخليكى مع غالية.. عاوزكوا تبقوا حاجة ألاجة زى اللى بنشوفهم على الكورنيش . وإنت يا شاكوش، من بكرة تنزل معايا على قهوتنا الجديدة.

وهب الشاكوش راقصاً يتقافز فرحاً حول شحاتة الجالس بين سمارة وغالية وهو يردد " وكمان قهوة يا معلم شحاتة !!!" وقد أصابتهم جميعاً حالة من الفرح و السعادة بعد هذه النقلة الكبيرة والتحول فى نمط المعيشة التى لم يكونوا يحلمون بها، ونهضت الأنثتان لوضع حاجياتهم وتجهيز البيت الجديد للسكنى، وخرج الذكران يستطلعان المكان فى الخارج، ومعاينة القهوة الجديدة، الواقعة أمام

سوق السمك الشهير بمنطقة بحرى و نقطة الشرطة.

رتبت سمارة وغالية حاجيات شحاتة فى الغرفة الكبيرة، واضعة الصندوق العريض ذا القفل النحاسى الكبير فى ركن قصى من الغرفة، وسألت سمارة عما يحتويه هذا الصندوق الثقيل، ولكن غالية نهرتها بعصبية وهى تنزع يدى الفتاة من على الصندوق موضحة لها بأن شحاتة لا يحب أن يعرف أحد عن أموره شيئاً كعادة كل الرجال، وانتهت الاثنتان من كنس وفرش المنزل، ووضعت غالية الوعاء النحاسي الكبير على وابور الجاز لتسخين مياه الاستحمام لها ولسمارة.

سمارة التى تناست بلدتها وأسرتها الحقيقية وانخرطت فى تلك الاسرة التى أعادت تشكيل حياتها طبقا لمبادىء جديدة، ومعايير أخلاقية تستند الى اللا أخلاق .

وعلى السور المواجه لقلعة قايتباى، جلس الشاكوش منصتا لشحاته يدخنان سيجارة ملفوفة بإحكام وهو يردد:

– خلى بالك... كل ده ملكك إنت يا شاكوش، إوعى تدى الأمان لغالية... دى ولية كافرة، أول ما تتمكن هاتبلعك... دى لَزْمتها معانا علشان الخدمة و النومة، بس إوعى تسيب نفسك لحُرْمة... تلعب بيك الكورة وتخليك شُرَابة خُرج... إنت هاتبقى مسئول عن القهوة والبيت وسرك معاك لوحدك.. إنت فاهم ولا اتسطلت يابن المسطولة!

– فاهم كل اللى قولته يا معلم ومش عاوزك تقلق خالص.

قالها الشاكوش وهو ناظر الى السماء السوداء المنطبقة على صفحة مياه البحر المهتزة تحت ضوء القمر. وسحب شحاتة الشاكوش من كتفه وقفل الاثنان راجعين الى دارهم الجديدة حاملين أكياساً ورقية مليئة بالفاكهة والطعام وزجاجات النبيذ، لزوم سهرة الترحيب بالمنزل

الجديد... و استقبلتهم غالية باسطة يديها لتحمل عنهما حملهما، مقتربة من شحاتة الذى تنفس بعمق بمجرد اقترابها منه، تفوح منها رائحة الصابون المعطر بعد حمام ساخن لم تعرفه فى عشتها الصفيح ذات الثقوب من كل الجوانب، داعية لشحاتة الباسم في وجهها بطولة العمر و الستر.

– طيب يا برنسيسة ، خدى شوية الكبدة دول و جهزيلنا عشا ملوكى..إحنا لازم نبرّ نفسنا شوية ...أمال فين سمارة ؟

– في دورة المية اللى فوق... بتستحمه بعد ما إتهلكنا فى توضيب البيت.. دى طول ماهى شغالة بتدعيلك يا خويا.

– دى أصيلة وجدعة.. رد الشاكوش وأعقبها شحاته بنفس الرد سائلا:

– طب فيه ميّه سُخنة لينا إحنا كمان ولا مافيش ؟

– طبعا يا خويا ..أنا مجهزة حلة تانى للرجالة..

وبعد أن تحمم الأربعة لأول مرة فى البيت الجديد، يقسم كل واحد منهم وهو مختل بنفسه فى الحمام و بخار الماء الساخن المتصاعد فى جنباته، بعدم الرجوع الى الفقر مرة أخرى، بعد ان أحس بآدميته ونظافة العيش، وكمن يغتسل من أوساخ العشش العالقة ببدنه وعقله أيضا، مع سكبات المياه السائرة على البدن والتى تعرف طريقها الى تلك الفتحة الصغيرة فى أرض الحمام، حاملة معها قاذورات البدن وذكريات لها رائحة نتنة لحياة مضت.

افترش الأربعة متحلقين حول طبلية الطعام يتندرون ويتحاكون، مع كئوس النبيذ الدائرة على أربعتهم، ودخان الحشيش المتصاعد من أفواه فى وجوه تحوى عيونا زائغة من نشوة الخمر، ومعرفة سمارة لأول مرة

معنى الكيفْ ولذته العلنية، ومع تواشيح آذان الفجر من مسجد المرسى أبو العباس بدأ الكل فى التثاوب إيذاناً بإنتهاء السهرة، و بادر شحاتة الجميع بالنهوض رامقاً غالية بطرف عينه، واتجهت سمارة الى غرفتها ناظرة الى الشاكوش المترنح الى غرفته هو الآخر. ودخل شحاتة وغالية الى غرفته ليضع آخر أحداث السهرة الماجنة مستمتعا بجسد غالية الفائر من الخمر، متقلبان على الارض ناسيان وجود السرير المنتصب أمامهما و الشاهد على أولى ليلتهما، والحشيش ودوار النشوة يراقص عقليهما غير عابئين بارتفا ع صوتهما المتقطع من شدة اللهاث.

وانتهزت سمارة انشغال غالية وشحاتة ودخلت مسرعة الى غرفة الشاكوش مغلقة الباب مستندة بظهرها اليه، وهى ترمق الشاكوش الذى تفاجأ بها أمامه فاغراً فاه، بعد أن نزعت جلبابها الساتر لجسدها الناعم، دون أى ملابس أخرى فى حركة بطيئة، أعقبتها بالانقضاض على الشاكوش الجاحظة عيناه من الرغبة، ويبدأ الاثنان فى التهام جسديهما فى وليمة شهية.

استيقظت غالية منتشية تاركة شحاتة عارياً على الأرض تلملم ملابسها، ولأول مرة تتذكر أنها فى حلٍ من أن تبحث عن ساتر خارج بيتها لتحتمى خلفه من أبصار المارة للمؤخرة المكتنزة، وهى جالسة القرفصاء لتقضى حاجتها فى الحمام الجديد وباب مغلق عليها. واتجهت الى حجرة سمارة... ولكنها انتفضت عندما لم تجدها فى سريرها ..وكمن يدرى أين يجب أن يبحث... اتجهت الى غرفة الشاكوش، و وجدت سمارة المنبطحة على وجهها عارية، وجسد الشاكوش الأسمر الراقد بجوارها محتويا النصف الاسفل لها بين ساقيه، وبرفق شديد ربتت على ظهر سمارة واضعة أصبعها على

شفاهها ساحبة إياها الى غرفتها:

- من إمتى يا صايعة والشاكوش بيدقْك؟

سألتها غالية ببرود شديد، وبنفس البرود أجابتها سمارة ببجاحة العاهرات:

- من زمان... زى ما شحاتة بيدقْك إنتى كمان.

وبنبرة خانعة أردفت غالية:

- يا بت انا مش بحاسبك، أنا عاوزة أنصحك... هو بيديكى إيه؟.. يعنى بيغُزك بفلوس ؟.. بيجيبلك هدمَة؟... بياخدك يفسحك؟... يا موكوسة لازم تسترزقى منه . على العموم ..أنا مش عاوزاكى تعَرفيه إنى عرفت، خلى الموضوع سر، أحسن لو شحاتة عرف، ممكن يعمل دوشه. ده بيخاف على الواد كإنه ابنه. اتفقنا؟

أومأت سمارة برأسها دون مبالاة وكأن الامر برمته لا يعنيها، ونهضت الاثنتان لتجهيز طعام الإفطار لهذين الفحلين الراقدين حتى الظهيرة. واللذين نهضا على صوت غالية يصدح فى أركان الدار منادية عليهما ليشقا ريقهما ويتوكلان على المولى.

*****

فتح الشاكوش وشحاتة الأبواب الخشبية للقهوة الجديدة على مصراعيه، زاعقين بالبسملة وهما يدلفان داخلها، متأملين تلك المقاعد والمناضد المصنوعة من قش الأرز المتكومة فوق بعضها البعض فى وسط القهوة، تحدها فى مؤخرة المكان الفسيح منصة من الطوب المبنى على هيئة منضدة، مرصوص خلفها فى شموخ أعداد من الشيَش الذهبية اللون ذات المقعدة الزجاجية الملونة، وأكواب و فناجين وعدد من الاباريق النحاسية الكبيرة، يرقد أسفلها موقد حديدى بجواره حوض

مملوء من الرمال يستخدم كدفنة لتلك الاباريق النحاسية لتحتفظ بسخونة المياه المغلية، شهق الشاكوش قائلا لشحاتة:

- ده المكان جاهز من كله، مش ناقص غير الزباين و التوْمِين ... وسكت برهة كمَن وجد عقبة فى طريقه .... و التوْمِين ده هايبقى مشكلة بعد الحاجة ما شاحت في الحرب، أنا سمعت فى الراديو إن القهاوى ليها حصة من السكر والشاى ....ولم يدعه شحاته يكمل ثرثرته وقاطعه بضحكة قصيرة مستهزئاً من ملاحظة الشاكوش:

- بطل رغى .. يعنى أنا مخطّط ومخّمخ كل ده، ومش هاعرف أظبط التوْمِين بتاع القهوة!

وفجأة بدأ شحاتة فى الترنح يميناً ويساراً ممسكاً رأسه، وعاجله الشاكوش بإمساكه من جِزعِه محتضناً الجسد النحيل وساعده فى الجلوس على أقرب كرسى له، متسائلا فى لهفة:

- مالك يا معلم، أوديك المستشفى؟

- لأ... هاتلى شوية ميه بسكر.

وأسرع الشاكوش بتناول كوب فارغ وملأه بالماء بعد أن قذف بكف يده حفنة من السكر أسفل منضدة الماركات وناوله لشحاتة الذى تجرع الكوب مرة واحدة ثم نهض بعد برهة قليلة و كأن شيئا لم يحدث، ولكن الشاكوش أصر أن يذهب به الى المستشفى، ولكن رفض شحاته القاطع لم يترك مجالا للإلحاح . وبدأ الاثنان فى رص الكراسى والمناضد أمام القهوة مع سلامات، ودعاء بالمباركة من كل سائر فى الشارع، وانتصف النهار مع قدوم أبو العيون، ذلك الشيخ الكبير، وهو ممسك بيد صبى مقدما إياه الى شحاتة:

- السلام عليكم يا حاج شحاتة.

- ورد شحاتة السلام بصوت وقور أدهش الشاكوش نفسه.

- ده الواد صابر ابن ابنى ..هايشوف الطلبات رى ما إنت أمرتْ، والأجرة مش هانختلف عليها يا حاج واللى تشوفه. بس وحياة بيت الله اللى إنت زُرته، حط فى بالك إنه يتيم ومالهوش فى الدنيا غيرى.

أمسك الشاكوش ضحكة كادت تفلت منه وهو يشاهد الشيخ الحانى وهو يكلم معلمه الذى رمقه شذراً قائلا:

- خد يا شاكوش الواد صابر، و خليه يوضب الكبايات ويسلّك الشيَش وربنا يبارك من الليلة دى. و إنت يا شيخ أبو العيون، يوميته حتة بربع جنيه... مبسوط يا عم الحاج؟

- ربنا يبارك فيك يا حاج شحاتة... وأعقبها أبو العيون موجها حديثه الى صابر .خللى بالك من الشغل، وخليك خفيف واسمع كلام الحاج شحاتة و المعلم الشاكوش و إوعى يشتكولى منك.

وأجاب صابر بإماءة من رأسه أعقبها خروج صوته الجهورى الذى لا يتناسب مع هيئته الضعيفة، وقفل الحاج أبو العيون راجعاً بعد أن ترك صابر فى عهدة شحاتة و الشاكوش، وبدأ الجميع فى تجهيز القهوة للافتتاح بعد المغرب، وقد أحضر شحاتة خزين الشاى و القهوة والسكر و المعسل، وكل ما يجب أن يكون فى القهوة من مشروبات، وأضيئت الأنوار وبدأ أول طلب بصينية كبيرة تحمل أكواب الشاى فى اتجاهها الى نقطة الشرطة التى تبعد عن القهوة عرض الشارع.

- الحاج شحاتة بيمّسى عليكوا يا صُولات من القهوة الجديدة... قالها صابر كالمحترفين، باسطاً يده بأكواب الشاى الى كل من يقابله أمامه مكرراً رسالة الترحيب من شحاتة.

وانتهى أول يوم من العمل عند منتصف الليل بعد أن أطلق رواد

القهوة من قاطنى سوق السمك عليها بالقهوة الجديدة وأصبح اسما دارجاً لها . ورجع شحاتة والشاكوش بأسارير منفرجة، ولم يمنع ذلك من ملاحظة غالية للإجهاد البادى على وجه شحاتة :

– مالك يا خويا ؟ إنت تعبان؟

– باين عليا إنى كبرت، وما بقتش حمل الشغل... إحنا إشتغلنا كتير فى القهوة النهاردة.

– كبرت إيه... فشر.. أمال اللى حصل إمبارح ده كان إيه؟ قالتها غالية بدلع أنثوى دافىء، راسمةً ضحكة على وجهها.

– سلامتك يا عم شحاتة إنت لازم تروح الإستبالية..

قالتها سمارة الحاملة لأطباق الطعام، واضعة إياها على الطبلية النحاسية المتوسطة صحن الدار.

– لما نشوف كده على آخر الأسبوع .. لو لِسّة تعبان هابقى أروح وربنا يستر...

وكالعادة التف الأربعة حول الطعام يتحاكون بما حدث فى نهار كل واحد منهم، وحكْت غالية عن قدوم نسوة الحارة ليباركوا لغالية وابنتها على السكن الجديد، وضحك الشاكوش عند سماعه كلمة ابنة غالية ناظراً الى شحاته الذى كان غائب الذهن، ونهض الى غرفته بعد تناوله العشاء على غير عادته، تاركا الثلاثة فى دهشة وقلق عليه.

شد الحنين الشاكوش الى بسيونة، فاستأذن شحاتة فى يوم من الأيام المتكررة فى أن يذهب ليأتى بالتموين الخاص بالقهوة بدلاً منه، ليريحه من عناء هذا المشوار المجهد، الى منفذ التوزيع فى ميدان المنشية، وإشفاقا عليه من وقفة الطابور، وأخذ الكوبونات ورخصة القهوة وهى الأمور الروتينية الشائعة فى تلك الظروف. واتجه الشاكوش

الى مستشفى الإنكلوستوما بسيدى بشر سائلا الحارس القابع أمام البوابة عن بسيونة، فأدخله بعد أن دس فى يده تلك القطعة المعدنية، مفتاح الابواب المغلقة . وفى ساحة انتظار المرضى ذات المقاعد الأسمنتية البيضاء، فى صفوف طولية، يجلس المرضى وذووهم قبالة أبواب حجرات الكشف فى انتظار دور كل منهم، دخل الشاكوش منتصباً وسط تلك المساحة الكبيرة، ملتفتاً يميناً ويساراً باحثاً عن بسيونة والتى انتفضت عند رؤيتها للشاكوش فى ساحة انتظار المرضى، واتجهت مسرعة اليه ماسكة يديه ساحبة إياه الى ركن قصى بعيد عن الأعين، حتى لا تفتن تلك العيون لأمها العاملة فى نفس المستشفى.

- وحشتينى يا بت.

- وإنت كمان.. إنتوا من ساعة ما روحتوا ماحدش سامعلوكم صوت ولا شايفلوكم منظر يا واطيين يا......

- بطلى قباحة... أمال أنا جاى ليه يابت الهبلة.

خرجت الكلمات بسرعة تحمل لهفة وشوقا وتوترا من عيون المرضى المتلصصة عليهما، واتفقا على لقاء فى نهاية الاسبوع صباحاً، فى المنزل الجديد ببحرى، لعدم وجود غالية وسمارة اللتين تسرحان حتى ما بعد العصر... مشدداً عليها بعدم إخبار أحد بالمكان الجديد لأى من ساكنى العشش.

وبعد أن بث الشاكوش شوقه لبسيونة رجع مسرعاً الى المنشية ليحضر التموين كما أخبر شحاتة، وقفل راجعاً محملا بالبضاعة، ودخل على شحاتة القهوة منفرج الأسارير، وبكل همة ونشاط انتهى اليوم كباقى الأيام. ويرجع الاثنان عند منتصف الليل، الى غالية وسمارة،

اللتين ترجعان الى الدار بعد انتهاء عملهما كخادمتين، وباعثتين للفرفشة والمتعة فى الڤيلل و الشقق الفاخرة، الساكنة بالطلبة العرب والعُزَّاب وبعض الأسر الغنية، بعد أن ذا ع صيت سمارة فى أوساط رجال المستويات الراقية، الذين كانوا يطلبونها بالاسم، وبدأت الاحوال المادية فى الازدهار، وأخذت سمارة بنصيحة غالية وبدأت فى الادخار، وقد امتلأت حجرتها بالملابس الجديدة والعطور وأغطية السرير الواسع، وامتلأ دولابها بدلاً من ذاك الصندوق الخشبى القديم.

وفى نهاية الأسبوع كما تواعد الشاكوش وبسيونة، تلاقى الاثنان فى الدار، وانبهرت بسيونة بالمنزل الواسع وبهذه العيشة الرغدة، وأعطت للشاكوش من أوقات السعادة أكثر مما كان يطلب، ممنية نفسها بحياة وبيت مثلما رأت، وأحس الشاكوش رعشتها وهى فى أحضانه مرات عديدة، مما زاده رغبة ومحبة لها، وافترق الاثنان متفقين على ميعاد آخر للقائهم، يجمع أربعتهم بعد أن أخبرته بسيونة اشتياقها لسمارة، فوعدها بترتيب لقاء هى وفتحية لتذّكر الأيام الخوالى، وانصرفت بسيونة راجعة الى سيدى بشر، واتجه الشاكوش ليحضر دليل غيابه من ميدان المنشية بمكتب التموين كالعادة. وعلى الرغم من تحديد حصة القهوة من المواد التموينية، إلا أن شحاتة لم يجد صعوبة فى زيادة مخزونه من الشاى و السكر من خلال علاقته بمخبري وعساكر النقطة، الذين يخرجون فى حملات تفتيشية، يرجعون منها بأحمال من السلع التى يختلسون جزءاً منها كحق كفله العرف لهم.

بدأت علامات المرض الشديد تظهر على شحاتة، الذى هزل جسده بصورة ملحوظة، حتى ألحَّ عليه الشاكوش فى الذهاب الى مستشفى

رأس التين المجاور لهم . ورضخ شحاتة لرغبة الشاكوش بعد إحساسه بالوهن و الضعف الشديد، حتى أنه لم يستطع أن يقرب غالية لفترة تزيد على الشهر كغير عادته. وأصرت غالية على الذهاب معهم تاركة سمارة في المنزل. وبعد أن كشف الطبيب على شحاتة، طلب منه المكوث في المستشفى للقيام ببعض التحاليل و الوضع تحت الملاحظة، وأصر الشاكوش وغالية على تنفيذ أوامر الطبيب على غير رغبة شحاتة. ورجعت غالية الى المنزل لإحضار بعض الملابس لها ولشحاتة حتى تستطيع مرافقته في المستشفى، لحين خروجه بالسلامة كما تدعى . وانتظم الشاكوش في إدارة القهوة، ومكثت سمارة في البيت لا تبارحه لتجهيز الطعام الطازج يوميا لشحاتة وغالية في المستشفى . وانتهز الشاكوش خلو البيت، ومارس دوره كرجل، آمر ناه، ولعبت سمارة دور سيدة المنزل، وتذكر الاثنان فتحية وبسيونة في جلسات الصفا، فطلبت منه أن يدعوهما الى زيارتهم، وتصنّع الشاكوش الرفض في البداية مدعيا أن ذلك يمكن أن يغضب شحاتة وغالية، ولكن مع ما تملكه سمارة من خبرة استقتها من غالية رضخ الشاكوش كما توهمت هي، ودُعيَت كل من بسيونة وفتحية بعد أن أكد الشاكوش على بسيونة بعدم ذكر أي من لقاءاتهم السابقة في المنزل.

واجتمع الأربعة عند انتصاف النهار يجترون ذكريات العشش ويتناولون أخبارهم منذ وقت انفصالهم، وعلمت سمارة بوفاة أبوفتحية في حادث قطار، وزواج أمها من عامل في شركة إدفينا التى كانت تعمل بها، ومراودة هذا الزوج لفتحية عن نفسها في خلو العشة من أمها، وإحساسها بعدم الأمان بعد وفاة أبيها، وأعقبتها بسيونة في الحكى عن ظروفها مع والديها ورغبتهما في تزويجها من رجل ليبى

يكبرها بأربعين سنة، مقابل حفنة من الدنانير، وتهديدها لهم باستمرار بالانتحار إذا ما أجبروها على الزواج، وبدأت الجلسة تأخذ منحى النكد والغم، لولا خروج قطعة حشيش من جيب الشاكوش وإحضار سمارة لزجاجة البراندى من مخدع غالية، وبدأ الأربعة فى الانتشاء فى مجون العرى، بعد أن ذهبت الخمر برؤوسهم جميعاً، واندمج الاربعة كجسد واحد يعج بحرارة لا تميز بين أربعتهم، ولم يستيقظوا من النشوة إلا على صوت كالرعد يخرج من منخار غالية، التى وقفت فوق رؤوسهم ، زاعقة بالسباب، شاهرة يديها الاثنتين راعشة الوسطى فى كل يد قائلة:

- إنتوا فاكرين نفسكوا فى كرخانة يا قحوب..... قومى لٍّى نفسك إنتى وهيه عشان أعرف أوضبكم كويس... وإنت يا سيد الرجالة حسابك مع معلمك... وحياة أمى لأكون فضحاكم يا حايحة منك ليها.

وكمن وجدت فرصة كانت تحلم بها، استمرأت غالية فى أداء تلك التمثيلية بإتقان وقد انفك شعرها، واحمر وجهها من شدة الصراخ والولولة...

- قدامى يا حايحه إنتى وهى .

ولت طرف ثوبها فوق رأسها متجهة الى الباب، لولا سقوط سمارة قابضة على قدمها، ونحيب فتحية وبسيونة واستجدائهما لها بعدم الفضيحة.. واضطراب الشاكوش الذى لملم نفسه بصعوبة لا يدرى ماذا يفعل بعد أن أحس أنه قد وقع فى قبضة غالية، فتمتم بكلمات غير مسموعة ثم لوح بيده كمن لا يبالى، وانصرف زاعقاً من خلفه الباب. وانكفأت فتحية وبسيونة فى بكاء متواصل حاكين لغالية ظروفهما عسى أن ترقفا قلبها وتعفيهما من تلك الفضيحة، التى سوف يلوكها أهل العشش، والتى سيتخذها والدا بسيونة ذريعة لتزويجها من العريس

اللقطة كما يعتقدون . ووجدتها غالية فرصة لا يجب أن تمر دون الاستفادة منها كليا، بتحكمها فى هاتين الفتاتين اللتين لطالما كانت ترقبهما وتمني نفسها بأن تعملا تحت إمرتها لتصبح عايقة، بعد أن تقدم بها العمر، وقل الطلب عليها، واعتمادها على سمارة فى إيجاد زبون لها كل فترة.

جلست غالية على الدكة المواجهة للبنات الثلاث، وأخرجت علبة سجائرها المدسوسة بين نهديها، عازمة على فتحية و بسيونة بسيجارة مَكَنَة، مما طمأن الفتاتين قليلا، وأشعلت غالية سيجارتها ساحبة نفسا عميقا دون أن تنبس بكلمة، شاخصة بصرها بحدة الى فتحية وبسيونة، وأردفت بعد أن هدأت الفتاتان قليلاً:

– ده إنتوا ظُروفكوا زفت وقطران... بس ينفع برضه اللى إنتوا عملتوه ده!

وبدأ صوتها يتخذ نبرة العتاب واللوم الهادىء، ناظرة الى سمارة التى انكمشت بجوار ساق الكنبة الراقدة عليها غالية.....

– طيب إيه رأيكوا إنى ما شفتش حاجة خالص... ده إنتوا زى سمارة بالظبط، ومارضاش ليكم الفضيحة أبداً، وغلاوتكوا من غلاوتها، وسيدى المرسى أنا قلبى اتقطع لما حكيتولى ظروفكم، بس انا عندى حل.... وأخرجت أربع سجائر أخرى ذات نهاية رفيعة، من جانب آخر بين نهديها وناولت كل واحدة منهن سيجارة، وبعد أن أشعلت سيجارتها أعقبتها بإشعال فضولهن قائلة بخبث كاسرة عينيها الى الأرض ناظرة اليهن من أعلى الجفن.... إيه رأيكوا لو تشتغلوا معايا وأوَكِّلكم الشهد.

*****

تحلق كل من الشاكوش وغالية وسمارة حول جسد شحاتة المُندَس في فراش المستشفى، وقد برزت عظام وجهه بصورة حادة. على الرغم من عدم ظهور معالم لجسدِ أسفل غطاء السرير، إلا من ارتفاع بطنه وتكويرتها العالية الغريبة، ما يدل على وجود باقي جسد شحاتة تحت الملاءة البيضاء، ودخل طبيب صغير السن موجهاً بصره الى غالية متسائلا:

- إنت مراته؟
- أيَوَه يا بيه.
- طيب لازم نعملك شوية تحاليل علشان نِطَمن.
- هو عنده إيه يا بيه؟

سأل الشاكوش بلهفة شاخصا بصره الى الطبيب.

- لا.. دى شوية التهابات بسيطة بس إحنا نحب نطمن...

أجابه الطبيب رامقاً إياه بنظرة جانبية، فهم منها أنه لا يستطيع التحدث أمام شحاتة، وانصرف الطبيب مرافقا غالية الى غرفة التحليل تاركا سمارة و الشاكوش فى حضرة شحاتة.

- ماتقلقوش يا ولاد..

قالها شحاتة بصوت واهن، وقد تبدل صوته تماما من ذلك الصوت الأجش ذى الجبروت و البلطجة الذى طالما كان يتردد على مسامعهما. و أسقط فى يد سمارة و الشاكوش الذى دمعت عيناه وهو يراه وقد هده المرض . وبدأت سمارة فى البكاء، ولكن شحاتة نهرها طالباً منها الذهاب الى غالية للاطمئنان عليها، وأشار الى الشاكوش بالاقتراب بعد خروج سمارة قائلاً :

- أنا عارف إن أيامى قليلة...

– بعد الشر عليك يا معلم شحاتة..

– أسكت وإسمع اللى هاقولك عليه كويس، وإوعى تطلّع كلمة منه لمخلوق، وماتنساش إني طول عمرى حافظت عليك وعلمتك اللى أنا اتعلمته بالغالي، تعمل اللى هاقولك عليه بالظبط... وسكت شحاتة ليلتقط أنفاسه المتلاحقة بصعوبة.... وإنتوا مروحين، تاخد بعضك وتعدى على القهوة، وتفتح درج الماركات هاتلاقى بطرمان البن بتاعي، تفضى البن اللى فيه، هاتلاقى مفتاح سحارة الكنبة فى القعر، ولما تروح الدار وتتأكد إن كله نام، تدخل منامتى وتفتح الكنبة هاتلاقى كيس قماش ملفوف بخيط... الكيس ده فيه عمرى وعمرك يا سعد... أهم حاجة فيه الورق، إوعى يضيع منك... تاخد الورق وتشيله فى حته أمان... وبعد ما أنزل التربة ....

– ماتقولش كده يا عم شحاتة... ده أنا ماليش غيرك.

– ماتقاطعنيش يا بن الحمارة... خليك فى المهم... بعد ما تخلصّوا الدفنة، والأمور تهدى وغالية تبعد عنيها عنك، تاخد بعضك وتسافر حته اسمها شبرا النملة فى البحيرة... تروح لإمام الجامع.. الشيخ طنانى ... ماتخافش مش هاتوه، هو جامع واحد فى البلد كلها، أول ما تشوفه قوله أنا جاى من طرف عم شحاتة، وسيب الباقى عليه. متنساش ولا كلمة يا سعد، وآخر حاجة عاوز أقولهالك... وسكت شحاتة قليلا ليلتقط أنفاسه مرة أخرى... إوعى تدى سرك لغالية وتضحك عليك بالسَهْوكة والكُهْن... و خلى بالك من سمارة... دى بت جدعة وكانت هاتبقى عكازى... بس النصيب ما جاش على الهوى.. وخليك زى مانت معاها بس إوعى تلف دماغك بالجواز...

وانتفض الشاكوش عند سماعه كلمات شحاتة الذى أخذ فى السعال

ضاحكا:

- ما تتْنططش... أنا عارف كل حاجة، إنت و التلات بنات، أنا مش مسطول يابن الحايحة.. اتفقنا يا شاكوش؟

- اتفقنا يا عمي...

رد الشاكوش و دمعة تترقق من عينيه مع دخول سمارة وغالية، والتى أخذت فى تغيير ملابس شحاتة وإطعامه. وتنهض الثلاثة مودعين شحاتة الراقد على فراش الموت.

اتجه الشاكوش الى غرفة الطبيب ليعرف منه حالته، ولكن ما قاله له الطبيب أكد إحساس شحاتة بدنو أجله:

- والله يا سعد عمك حالته متأخرة خالص، هو عنده فشل فى الكبد ولكن فى مرحلة متأخرة.. بس الأعمار بيد الله.

- يعنى ده مالهوش علاج يا دكتور؟

- فى الحقيقة إحنا بنعتبر إن اكتشاف المرض فى حد ذاته إنجاز، لإنه مرض جديد وحكاية العلاج دى بعيدة شوية دلوقت.. بس الاعمار بيد الله.

وانصرف الشاكوش شاكراً الطبيب، والذى بدوره شيعه بالدعاء لعمه بالشفاء.

خرج الشاكوش الى سمارة وغالية المنتظرتين فى العربة الحنطور أمام المستشفى، وعلامات التجهم بادية عليهما، وتساءلتا عما قاله له الطبيب، فلم ينبس بشىء وهو مطأطىء الرأس، ونزل الشاكوش على أول الشارع تاركاً سمارة وغالية المتجهتين الى البيت، و اتخذ هو طريقه الى القهوة شارد الذهن من كلمات شحاتة، وجلس على المنضدة العالية بعد أن قذف بالسلام الى صابر، وطلب منه أن يحضر له شيشة

وكوباً من الشاى، وأخذ فى فتح الدرج الذى يحوى بداخله علبة البن الخاص بشحاتة، وسكب ما بها من بن خلسة فى كيس صغير واضعا إياه فى الدرج، وانزلق المفتاح الصغير فى راحة يده التى وجدت طريقها الى جيب القميص، وأغلق الشاكوش الدرج كما كان وآخذ ينفث دخان الشيشة مع رشفات الشاى حتى انتصف الليل وأغلق القهوة راداً سلام الصبى صابر واتجه مباشرة الى البيت.

******

كعادتهن فى أيام متفرقة، يجتمع الثلاثة صبايا مفترشات رمال شاطىء العصافرة، بعد أن بدأ العمران يزحف، وجموع النازحين من محافظات مختلفة تستوطن فى تلك المناطق الجديدة و الرخيصة فى المعيشة، جلست بسيونة ممددة ساقيها متوسطة بين سمارة وفتحية، ناظرة الى صفحة الماء الأزرق، و تنهيدة طويلة تخرج من صدرها، أعقبتها بقولها:

– يا سلام لو الواد الشاكوش يكتب عليا، ويتوب علينا ربنا من الشغلانة الهباب... دى أمى كل شوية تقولى بطلى صرمحة يا بت واهمدى عشان يجيلك عدلك... وأبويا كل شوية يزن ويفتح موضوع جوازة الراجل الليبى، اللى مْعشّمه بكام ملطوش.

– عارفين يا بنات أنا نفسى فى إيه؟.... سألت فتحية وبريق الفرح يلمع من عينيها.... أنا نفسى أنضف وأمشى عدل، وأكمل تعليمى، وأتجوز واحد محترم وأهننه وأكون ست بيت بريمو، ويكون ليا عيال أربيهم وأدخلهم مدارس ويكونوا أحسن عيال فى الدنيا و.......

– حيلك... حيلك.... حيلك شوية يا دكتورة توحة... قاطعتها سمارة وبسيونة الغارقتين فى الضحك، وبسخرية ممتزجة بالإستنكار أكملت

سمارة... إنت هاتعملى نفسك دكتورة بالكام سنة بتوع الإبتدائية ولا إيه؟!.. وغير كده، هو الشغل عيب! ولا إنتى فاكرة اللى بنعمله ده عيب؟! على رأى غالية.. الدنيا طول عمرها كده ، الراجل يجرى ورا الست، والست هاتموت عليه وتقوله لأ، وكل ده مالوش دعوة بالعلام، وإنتى أول واحدة عارفة ده، ما إحنا كل زبايّينا من التلامذة بتوع الجامعة، وناس بتشتغل شغلنات حلوة وألاَجَة، يعنى ده مالوش دعوة بالمحترمة ولاّ مش محترمة، يعنى انا لما أفتح رجلى أبقى مش محترمة والنطع اللى راقد بينهم يبقى محترم علشان هو متعلم ولا موظف؟! وسيبك من ده كله، فى حد يلاقى شغلانة تبسطه وياخد فلوس كمان، ويمتع نفسه ويقول لأ بلاش ؟! ده يبقى فقرى إبن فقرى...و...

قاطعتها بسيونة قائلة بهدوئها المعهود، وهى تنظر الى السماء:

– يا بنات مافيش أحلى فى الدنيا كلها من إن الست تبقى قاعدة فى بيتها، متهننة ومتدلعة من جوزها، اللى قانيها وحامى شرفها وعرضها. أول ما يدخل عليها، تولّع فى نفسها عشان تبسطه .. هى الست ليها حاجة غير منامة وسترة وراجل يصرف عليها؟! بدل شغل الصرمحة و الصياعة اللى إحنا فيه.

– طيب وإنتوا إيه جابركوا على كده ؟! بطلّوا شغل وأقعدوا فى بيوتكم، وإستنوا العَدَلْ لما يخبط عليكوا.

– إنتى فكرك إن الفقر و الذل اللى إحنا عايشين فيه ده، هايجبلنا راجل عليه القيمة ؟! يعيشنا زى ما إحنا عايشين دلوقت ؟! ..طبعا لأ...زى ما كل حريم الحتة بيتجوزوا، إما راجل بلطجى وكل يوم والتانى محبوس...يا إما واحد فقرى، هايطلعنا نشتغل ونسرح فى البيوت، وده لو كان عنده نخوة، وماشغلناش فى المخدرات والذى منه.

– إنتـوا بتـتكلمـوا فى حـاجـات غـريبـة ..اللى تقـولى نخـوة ومـحـترمـة..واللى تقولى عـرض وشـرف وعلام وبيت وعيـال.. هو الست بس هى اللى لازم يبقى عندها شـرف ومـحـترمـة وتخلف وتربى.. هو الشـرف إني أجيب رزة وقفل، وأقـفل على ده..... بلاش كـلام فـاضى ..إنتوا ما بتتعلموش من اللى إحنا بنشوفه فى البيوت العليوى ..يا بت ياهبلة إنتى وهى..إحنا بنشتغل ونجيب فلوس، وبنشوف الدنيا ماشية إزاى، وإنتى وحظك، عرفتى يبقالك قرش، كل الناس تقولك ياهانم وميت دكر يركع تحت رجليكى، ومش فى دماغه إنتى كنتى إيه..

– طيب والنبى سـيـبـونا من الكلام ده أحـسن عـصـافـيـر بطنى بتـصـوصـو، نقـوم ناكل ونلف سـيـجـارة، ونروح أحـسن العـيـال بتـوع الجـامعة ملبشين الجو بالمظاهرات بتـاعتهـم.. بس إللى أنا مـسـتغرباله إنهم يطلعـوا فى مظاهرة النهـاردة، وتانى يوم تلاقـيـهم بيدوروا علينا بشمعة ..إزاى؟؟؟؟ ماعرفش.

ونهض الثـلاثة ضـاحكات، وتوجـهن الى أشـهـر مـحل للفـول فى الاسكندرية، ودخلن يتقدمـهن الجارسون مرحبا بالآنسات ذوات المظهر الراقى، أولاد الذوات، وبعـد أن تناولن طعـامـهن نفـحن الجـارسـون بقـشـيـشـاً جـعله يتـقـدمـهن فى الخروج فاتحا لهن باب المطعم، واتجـه ثلاثتـهن الى إحدى كبـائن ستانلى على البحـر ينفثن دخان السـجائر المنتفخة، وودعت سمارة كلاً من بسيونة وفتحية، عائدات الى بيوتهن بعد أن هضمن ما أكلن بتعميرة الحشيش ونسمات البحر.

دلفت سمارة الى صحن الدار ملقية بالسلام الى غالية المتربعة على الأرض تستند بظهرها الى حـافـة الدكة فى منتصف القـاعـة، وألقت بجسدها على الأرض بجوار جلسة غالية التى رمقتها بنظرة وهى تربت

على ظهرها، و الدخان الداكن يخرج من فمها و أنفها، ونظراتها متجهة الى باب غرفة شحاتة فى الدور العلوى قائلة:

- شحاتة باين عليه بيودعٍ يا بت يا سمارة.

وهربت دمعة حارة فجأة من عينى سمارة الباسطة ساقيها فى حجر غالية.

- ده أنا أزعل عليه قوى يا غالية.

انتفضت غالية باعدة ساقى سمارة بعنف قائلة:

- يا بت الهبلة .. بصى لمصلحتك يا خايبة.. شوفى البيت ده كله، وصندوق الفلوس اللى متلقح فوق، لو إنتى بنتى بصحيح....سيبك من النحنحة وشوفى مصلحتك مع الشاكوش، بدل ما واخد كل حاجة منك، وفى الآخر تطلعى من المولد بلا حمص، ولا إنتى مقضياها مزاج وبس؟!

- يعنى أعمل إيه؟ .. ما إحنا كلنا فى الهوا سوا .. ولو كنتى ناصحة كنتى أخدتى من شحاتة.

- إتلمى يا فاجرة .. أنا إللى عاوزاه عملته من زمان، أنا بدوَر على مصلحتك إنتى... ده أنا لما كنت فى سنك كان رفعة رجل واحدة توقف رجالة بشنبات، مابالك بقى فى رفعة الإتنين؟!

وأطلقت غالية وسمارة الضحكات فى لحظة دخول الشاكوش عليهما فأطبقن ساكتات.

- ماتضحكونا معاكوا ..ولا إحنا ملناش نفس.

قالها بهدوء مبتسما الى سمارة التى احمر وجهها خجلا على عكس غالية التى أردفت محاولة إخفاء ارتباكها:

- ده إحنا إفتكرنا الولية أم سعيد بتاعة الحلاوة، لما جوزها رمالها

هدومها بره العشة أما جابتله شوية صيع كسَروله العشة فوق دماغه.... نقوم نحضر لقمة أحسن إحنا مستنيين من بدرى.

وتناول الثلاثة طعام العشاء الذى قامت بتجهيزه سمارة، وحاولت غالية أن تعرف ماذا قال الطبيب للشاكوش، الذى طمأنها بأن حالة شحاتة ستستقر مع مرور الوقت، وعلى الرغم من محاولة الشاكوش ليكون صادقا إلا ان غالية أيقنت كذبه، وأن مرض شحاتة هو مرض عضال لا براءة منه.

ونهض الشاكوش الى غرفته تاركا غالية وسمارة تتحدثان عن تلك البيوت التي دلفوها وعادات أهلها وأمزجة أصحابها من نوادر وشواذ، حتى اطمأنت غالية الى نوم الشاكوش وبدأت تهمس فى أذن سمارة:

– شوفى بقى .... أقطع دراعى إن شحاتة موصى الشاكوش على حاجة . وإحنا ولا لينا فى البيت ولا فى القهوة .. يعنى ماحلتناش حاجة غير القرشين اللّى مكنَفاهم من زمان من عَرَقى، وتحويشة عمرى، خليكى ناصحة وأدخلى عليه بوِّش حنية، الرجاله كلهم كده يدْلدلوا لما يلاقوا دلع وحنية وشوفى شغلك معاه... وناولتها سيجارتين وزجاجة نبيذ وأكملت... إديها سهرة إنتى وهو، عاوزة أسمع صوتكوا وأنا هنا.

ونهضت سمارة متجهة الى حجرة الشاكوش حاملة أدوات العمل المعتادة عليها، واقتحمت الباب مرة واحدة ناظرة الى الشاكوش الراقد فى سريره واضعاً ساقاً على أخرى، ينفث دخان سيجارته الى الفراغ:

– أنا قلت أجى أروَق بالك شوية.. ومكَنفة قزازة النبيت من الضهرية علشانك الليلة دى.

وعلى الرغم من الدلال الذى كانت تتحدث به سمارة اليه، إلا أن الشاكوش لم يعيرها بصره، فقد أخبره عقله بأن غالية هى من أعطت

الضوء الأخضر لها بعد أن ضبطتهما وفتحية وبسيونة معاً، ومعرفته بهذا الاتفاق السرى بينهن وبين غالية التى تبحث الآن مثل سائر العاهرات.. عندما يتقدم بهن العمر وتكن غير مرغوبات، بأن يتحولن من مقطورة الى عايقة، يكون لهن بناتهن الخواص كما كان يخبره شحاتة مراراً. وانتبه الشاكوش من أفكاره على يد سمارة وهى تداعب صدره العارى بيديها الدافئتين، مشعلة السيجارتين الموضوعتين بين شفاهها، ساحبة واحدة، واضعة إياها بين شفتى الشاكوش الذى بدأ يتجاوب مع هذا العهر الجديد، وممسكة بكأس النبيذ راشفة من إحداها وواضعة الاخرى بعد أن ملأته بسحابة من الدخان الخارج من صدرها اللاهث، ونهض الشاكوش جالسا على الأرض محتضنا جسد سمارة بيده اليسرى ماسكا كأس النبيذ بيده الأخرى ضاحكاً بمرارة.

– بتضحك على إيه يا شاكوش؟

– فاكرة يا سمارة لما كنا بنشرب من الكوز الصفيح فى العشش؟

اعتدلت سمارة فى جلستها بجواره وشردت ببصرها الى سقف الغرفة المرتفع وبدأ الاثنان فى اجترار ذكرياتهما فى مسكنهما القديم، وأخذا فى الضحك تارة والشرود تارة أخرى، حتى بدأت جرعات الخمر المسكوبة فى جوفهما تتزايد وهى تدفعهما الى التعرى والالتحام بعنفوان وقوة، حتى انتهى كل منهما من الآخر واستلقيا على الارض ممددين تتلاحق أنفاسهما بسرعة، الى أن غطا فى نوم عميق، وفتح الشاكوش عينيه بعد برهة، ووضع يده بين فخذي سمارة، فلم تحرك ساكناً، فنهض وارتدى ملابسه بسرعة، وقفز واقفاً بخفة متجهاً الى غرفة شحاتة، وفتح سحارة الكنبة... فلم يجد إلا ما أخبره به شحاتة، بجانب قطع من الحجارة والتى اندهش الشاكوش من وجودها داخل

الصندوق ـ فأخذ الكيس وأغلق السحَارة كما كانت وتسحب راجعاً الى غرفته، داساً الكيس تحت فراشه وخلع ملابسه كما كان واستلقى بجوار سمارة الغارقة في نوم عميق.

استيقظ الاثنان على صوت غالية وهى تزعق علي سمارة لتساعدها في تجهيز طعام الافطار، و التى خرجت من غرفة الشاكوش يتبعها.

– صباحية مباركة يا عريس ... صباحية مباركة يا عروسة.

نطقتها غالية وذلك الصوت المألوف يخرج من منخارها وضحكة لا تخطيء تصنُّعها من خبرت كيف تنزع آهات النشوة من صبى صغير حتى كهل عجوز.

– إيه .. إن غاب القط إلعب يا فار!!...على العموم إنتم أحرار... وأنا ما جبتش سيرة لشحاته عن فضايحك إنت و البنات.

وصمتت غالية وهى تجهز أطباق الفول و البيض والباذنجان المقلى، ورائحة الثوم المنتشرة فى صحن الدار تَسيل لعاب الشاكوش الذى عقّب بقوله مستعطفاً لها:

– البركة فيكى يا ست غالية.. والله لولاكى ماكناش هانعرف نعمل إيه.

– كُل بعقلى حلاوة يا واد.. هو أنا سمارة اللى ب.....

وقاطع كلامهما صوت دقات سريعة على الباب، فأسرع الشاكوش بفتحه:

– ده بيت شحاتة أبو الجود الطبجى؟

– أيوه يا ريس.. هو ده... فيه إيه؟

– أنا تمرجى من المستشفى .. باعتنى المعلم شحاتة علشان عاوزكم حالاً.

لم ينتظر الشاكوش حتى يكمل التمرجى جملته و قفز درجات السلم بخطوتين متجها الى غرفته، مرتدياً ملابسه بسرعة وبالمثل فعلت كل من سمارة وغالية وركب الأربعة الحنطور القابع أمام الدار، وانطلقوا الى المستشفى مهرولين فى الطرقات حتى وصلوا الى غرفة شحاتة . ووقع الشاكوش جاثيا على ركبتيه دافناً رأسه فى مرتبة السرير الذى يرقد عليه شحاتة، وأطلقت غالية الصرخات و العويل، وسقطت سمارة متربعة على الأرض لا تدرى شيئا سوى الدموع الغزيرة كالمطر تنهمر من عينيها، بعد أن رأى الثلاثة بقع الدماء التى تنتشر على ملاءة السرير التى تغطى جسد شحاته حتى رأسه.

****

اندهش أهل الحارة من هؤلاء العمال، الذين ينصبون الأعمدة الخشبية، ويربطون أقمشة الشادر الملونة بالأحمر و الأخضر و الأزرق، والبعض الآخر يضع الكراسى الخشبية فى انتظام بجوار بعضها البعض، وبدأوا فى التساؤل حتى عرفوا بوفاة شحاتة، وهبّت النسوة الى داخل الدار يواسين غالية وسمارة المتشحتان بالسواد، ونهض الرجال الى الشاكوش يمدون اليه يد المساعدة مع عمال الفراشة فى وضع كلوبّات الإنارة لحين وصول المقرىء. و بدأ امتلاء الشادر بأهل الحارة من الرجال، وتوجهت باقى نسوة الحارة الى الدار، لتعزية غالية وابنتها فى زوجها، وامتد العزاء حتى قبيل العشاء بعد أن ختم المقرىء آخر ربع من جزء القرآن الأول فى قراءته، ونهض المعزون فى صف طويل يقدمون واجب العزاء للشاكوش، وفى الجانب الاخر داخل الدار فعل النسوة ذلك مع سمارة وغالية، وفرغ الصوان من الرجال، إلا من الشيخ والشاكوش وعمال الفراشة الذين بدآوا فى فك الصوان وتجميع

حاجياتهم، وأعطى الشاكوش أجرة الشيخ والعمال واتجه الى منزله مهموما، ولم ينبس بكلمة واتجه الى غرفته زاعقا الباب خلفه.

– سيبك منه.. أدينا خلصنا الجنازة.. والتفتت غالية الى سمارة التى لم تتوقف دموعها وقد انقلب بياض عينيها الى احمرار قائلة بإستنكار .. مالك يا بت مشهنقه روحك قوى ليه؟!

– ده عم شحاتة يا غالية مهما كان برضه....أنا مش عارفه إيه القلب الحجر اللى عندك ده..

ردت سمارة بصعوبة شديدة وقد احتقن صوتها بالبكاء.

– طب يا حنينة... أنا هاقوم أنام و الصباح رباح معاكم إنتوا الجوز.

ونهضت غالية الى غرفتها تاركة سمارة فى نحيبها، و التى بعد برهة اتجهت الى غرفة الشاكوش المغلقة وقد أبى أن يفتح لها الباب أو يرد عليها، فإستسلمت و اتجهت الى غرفتها هى الأخرى.

و فى الصباح اجتمع الثلاثة فى غرفة شحاتة بعد أن دبر الشاكوش أمره:

– إسمعينى يا غالية إنتى وسمارة .. إحنا طول عمرنا عايشين مع بعض على الخير و الشر، وإذا كان عم شحاتة مات، فكل حاجة هاتفضل زى ماهى .... يعنى البيت بيتنا والفلوس اللى داَخْلهَ البيت بتاعتنا كلنا . ولا إنتى يا غالية ليكى رأى تانى؟

– لا يا حبيبى .. عداك العيب .. بس مش لازم يكون فى ورق للبيت والقهوة ؟ ... ونظرت الى الكنبة المقابلة لجلستهم..... آنا بقول كدة عشانك يا شاكوش، الورق ده لازم يكون معاك ...

وفهم الشاكوش ما ترمى اليه غالية، فنهض وادعى البحث عن

المفتاح فى دولاب شحاتة:

- هو المرحوم ماسبش المفتاح معاكى يا غالية؟

قالها ببراءة لم تنطل على غالية التى نظرت اليه باستنكار وقد أيقنت أن هذا الصغير يضمر أمراً، وأسرعت سمارة بإحضار مطرقة مقترحة كسر الكنبة العتيقة تهدئة لتحفز غالية للشاكوش، الذى تناول المطرقة وكسر بها القفل الصدىء، وشهق مفزوعاً وهو يترك المطرقة من يده قائلاً:

- الكنبة فاضية.... مافيهاش الا شوية طوب والورق الاخضر بتاع القهوة و البيت.... الفلوس راحت فين؟!

وكانت شهقة غالية أشد وطأة وأصدق من الشاكوش أعقبتها:

- ده مافيش إلا شوية طوب وحجارة !!... الفلوس راحت فين!؟... أكيد فى القهوة، ولا مخبيهم فين؟..

وأخذت غالية التى تملكها الجنون لبرهة تخمن مكان النقود دون جدوى، وهى تبعثر بيدها تلك الحجارة الموضوعة فى الصندوق محدثة نفسها وهى تلعن شحاتة بصوت عال. وسرعان ما تمالكت أمرها قائلة وهى تجز على شفتيها:

- الحمد لله إن حجة البيت و القهوة موجودين ... أحسن ماكنا ضعنا خالص.

- ماقالش المرحوم أدامك أى حاجة عن الفلوس يا غالية؟

- لا يا شاكوش... بس لو أعرف هو كان بيسافر فين ويختفى كل سنة؟

أجابته غالية محاولة بإستماتة أن تتمالك أعصابها، وانتهت مسرحية فتح كنز شحاتة، بسكوت غالية والشاكوش، واندهاش سمارة من رد

فعل غالية، وبلاهة مصطنعة ترتسم على وجه الشاكوش، فى حرب بين الحية وابن عرس.

واستقر الحال في بيت المرحوم شحاتة، فانتظم الشاكوش فى تشغيل القهوة كما كانت سابقاً، وقبعت غالية مستكينة فى البيت بعد أن سرحت فتحية وبسيونة وسمارة لأعمال الدعارة، وتقسيم العمل بينهن، وفى نهاية اليوم قبل رجوع الشاكوش، يأتين لتسليم الغلة الى غالية، فتعطى كل واحدة منهن نصيبها، وقد أخذن الثلاثة بنصيحة غالية بالاهتمام بمنطقة الطلبة فى الشاطبى، فكما قالت لهن بأن "الطلبة شغلهم سريع .... يقلب بسرعة وتشوفى غيره". وأتت النصيحة بما كانت ترجوه غالية، فوجود التجمعات الطلابية فى منطقة متلاصقة يجعل البحث عن الزبائن و التنقل بينهم أمراً هيناً، مما أدى الى ارتفا ع الحصيلة اليومية لكل منهن، و توافر الاموال فى يد شابات صغيرات دون حساب.

ولم يمنع هذا من ملاقاة الشاكوش لبسيونة على انفراد فى نهاية كل أسبوع، بعد أن أكد عليها بعدم البوح بتلك المشاعر لأى من سمارة وفتحية، حفاظا على علاقتهما التى كانت تكشف عن حب حقيقى من الشاكوش تجاه بسيونة، والتى بدورها كانت تبادله هذا الحب، ممنية نفسها بالاستقرار معه فى يوم من الايام . وكانت تلك المقابلات تتم فى شقة مفروشة فى شارع طيبة بالإبراهيمية، وفى أحيان متباعدة كانت مكان لجلسات المزاج لأربعتهم، وعلى الرغم من تنبيه الشاكوش لبسيونة بعدم البوح بتلك العلاقة، إلا ان الحب فضاح، فلم تتمالك بسيونة نفسها وأخبرت سرها لصديقتيها الوحيدتين، فتحية وسمارة، التى أيقنت حب بسيونة للشاكوش، فتوقفت عن نصب شباكها حوله، مخالفة بذلك

توجيهات غالية لها. ولكن ذلك لم يمنعها من مضاجعته فى بعض الليالى التى تحس فيها بإحتياجها الجسدى، على الرغم من ابتعاد الشاكوش- الذى تخطى الثلاثين- عنها لانشغاله ببسيونة، فلم يكن يرفض لها طلباً. ودائماً ما كان يظهر له شحاتة مردداً كلماته التى مازالت محفورة فى عقله، ونصيحته له بعدم ربط مصيره بامرأة، حتى أتى يوم اللقاء ببسيونة في وكرهما، وأخبرته بتأخر الدورة الشهرية عنها، واحتمال كونها حاملا منه.

- إيه .. إيه... إيه يا روح أمك!

قالها الشاكوش وهو ينتفض من الغضب واقفاً، وقد ارتفعت أنفه كمن يشتم رائحة كريهة.

- بقولك إيه ..شغل المناغيج ده ما يخلش عليا، حَبَل إيه وبتاع إيه! شوفى بقى، أنا حاجِبلك من الآخر.... ونظر فى عينيها بحدة وتهديد، وهو منتصب في وسط الغرفة واضعاً يديه فى جيب بنطاله. ....حَبَل وعيّل و أُستر عليا، وماتفضحنيش... ده كله شغل أنا ماليش فيه، لزّقى اللّى فى بطنك لحد من الرجالة بتوعك، ومن هنا ورايح إنتى فى سكة وأنا من سكة تانى خالص، ولو فتحتى بُقك بكلمة هاتفضحى نفسك بنفسك.... سلام يا بيسة.

ولم يترك لها الشاكوش فرصة للرد أو الدفاع عن نفسها، وإنما زعق الباب خلفه بشدة تاركاً بسيونة فى نحيب وعويل، لا تدرى ماذا تفعل سوى ارتداء ملابسها و الذهاب الى بير مسعود على شاطىء ميامى، منتظرة كعادة كل يوم كلاً من فتحية وسمارة، ولكنها لم تدر وقتها أن فتحية وسمارة فى مهمة عمل مزدوجة.

- أنا عندى زبون سُقع.... إتنين باين عليهم غشم، أول مرة من

الفلاحين، وقال إيه.... عاوزين شغل فول آوكْشن...

قاطعتها سمارة بسؤالها عن معنى الفول أوكشن.

– يا جاهلة .... يعنى شغل من مجاميعه.

واتجهت الاثنتان الى شارع اللاجيتيه، ونقرت فتحية على الباب الخشبى العتيق، وفُتح الباب عن شاب طويل مفتول العضلات، عارى الجسد إلا من سروال فلاحى ذى حبل فى المنتصف، يتدلى الى مابين ركبتيه... وقدميه ذات الأصابع الكبيرة فى غير اتساق حافيتين، والشقوق فى كعبيهما اتدلان على طول سنين من العمل فى الحقول، وعلى الرغم من ذلك فملامح وجهه طفولية تنم عن غشمٍ وطيبة.

– أهلاً ..أهلاً.. إتفضلوا ...يا حسين ..تعالى رحب بالهوانم.

قالها الشاب بلهجة فلاحية صميمة، وحمرة الخجل تعلو وجهه، مع ابتسامات من سمارة وفتحية عند سماعهما كلمة هوانم. وظهر خلفه شاب قصير القامة، ممتلىء الجسد، أسمر اللون، يرتدى مثل ما يرتديه زميله، كمن يعَد نفسه لما سيحدث لاحقا، ودخلت الاثنتان الى الصالة الصغيرة، ووجدتا زجاجات البيرة وتبغ السجائر وقطع الحشيش الصغيرة الجاهزة للحشو، موضوعة على منضدة منتصبة أمام كنبة كبيرة فى ركن من أركان الصالة، وبدأ التعارف الأولى، بتبادل زجاجات البيرة، أعقبه دوران كوب مغلق بقطعة من الكرتون، معبأ بدخان الحشيش المحترق ببطء و المُعَلّق من المنتصف بإبرة رفيعة، مثبتة فى قطعة الكرتون من الاسفل. وبدأ الاحتفال، ولكن كمحترفتين لم تنجرف الفتاتان فى السكر و الشرب كما أخبرتهما غالية من ان ذلك من الممنوعات عليهما " مهما كان الزبون اللى معاكى...، إوعى عقلك يتوه... تروحى فى داهية لو ماركزتيش فى كل حاجة جواليكى". و لم

يتمالك الشابان نفسيهما أمام هذين الجسدين العاريين الملتصقين ببعضهما، في محاولة لإضفاء جو من الإثارة، بمداعبة كل منهما للأخرى، وفجأة انتفض أحد الشابين وأخذ يربد ويزبد، فيما راح الآخر في نوم عميق بعض أن اهتز من النشوة كالمراهق الصغير عند مشاهدته لفيلم إباحي.

- إيه اللي حصل يا فتحية.. الواد بيستفرغ وعينه مبحلقة لفوق.

- يا نهار إسود... باين عليه الحشيش كتم على قلبه.

- وصاحبه المِنَيِّل ..رايح في غيبوبه ....طب حطي ودنك على قلبه كده.

- ده قاطع النفس يا سمارة .

ارتعبت الاثنتان وقد بدأ جسد سمارة في الارتعاش و تدور فتحية في المكان لا تدري ماذا تفعل، وبسرعة إرتديتا ملابسهما، وهمتا بالرحيل، لولا فتحية التي أردفت بجدية وتوتر:

- ده شغل ..لازم ناخد حقنا وننفد بجلدنا..

ودخلت الاثنتان الى غرفة الطالبين، وفتشتا في جيوبهما، وأخرجت فتحية كل ما في المحفظة، وبالمثل فعلت سمارة التي شخص بصرها الى الفراغ و سقط كل ما تمسك به على الأرض عند رؤيتها ما بداخل جيب أحد الشابين، والتفتت فتحية اليها لتسرع بالرحيل، وانتبهت الى هذا التمثال القابع أمامها صارخة فيها بالمغادرة ولكن دون جدوى، فصفعتها على وجهها ساحبة إياها من يدها كمن يشد طفلاً صغيراً ليهرب به من حريق محيطٍ به، وبسرعة أشارت الى تاكسي، متجهتين الى بئر مسعود.

جلس ثلاثتهن على صخرة مطلة على أمواج مصطدمة بتلك البروز

الصخرية الناتئة حول مجرى البئر من ناحية اتصاله بالبحر، مخلفاً رذاذاً متناثراً في الهواء ومياهاً كالزبد الأبيض تنتشر على صفحة المياه الزرقاء، مع خروج نافورة من فوهة البئر كلما يصطدم الموج بمدخله .
استغربت فتحية من ثقل الجو الكئيب الذي يحيط بها، من بكاء بسيونة المستمر عن يمينها، وانفصال سمارة عن ما حولها، وشرودها في الصفحة الزرقاء أمامها، وفاض الكيل بفتحية التي حاولت أن تعرف ماذا حلّ بصديقتيها دون جدوى:

– أنا تعبانة يا بنات وعاوزة أروح.. خليكوا إنتوا وأنا هاعرف أروح لوحدى.

قالتها سمارة بعد ان بدأت تستنشق هواء البحر المشبع ببخار الماء.

– ما ينفعش يا روح خالتك، لما غالية تلاقيكي داخلة لوحدك، دى تطين عيشتنا، إستنى شوية لما نهدى بت الموكوسة اللى واحشها العياط، ونقوم كلنا نودى الغلة.... ونظرت الى بسيونة قائلة...مالك يا بسيونة ؟ لو فى حد مزعلك ورحمة أبويا هاخدلك حقك تالت ومتلت.

وما إن سمعت بسيونة ذلك حتى نظرت الى فتحية بإنكسار وارتمت فى صدرها منفجرة فى بكاء ونحيب، جعل فتحية تضع يدها على رأس بسيونة والدموع تنساب من عينيها قائلة بصوت خفيض ممتلىء بحنان صادق:

– فيه إيه يا بنات؟... هو فى شوطة جاتلوكوا إنتوا الاتنين؟

رفعت بسيونة رأسها قليلا من صدر فتحية ناظرة الى عينيها الممتلئتين بالدموع قائلة:

– أنا حامل من الشاكوش ...

وأجهشت بالبكاء واضعة رأسها فى صدر فتحية مرة أخرى، والتى

الجمتها المفاجاة لبرهة ولكنها استدركت قائلة:

– وإبن الدكر عارف؟

– عرف..... وسابني ومشي، وقال لي ماليش دعوة، شوفي مين أبوه....أنا هاتفضح يا فتحية.. شوفيلي حل الله يسترك.

– سيبي الموضوع ده عليا، ومش عاوزاكي تقلقي، ووحياة أمه لأجيبهولك راكع على رجليه.

قالتها فتحية بغضب بدا على صوتها المختنق بالدموع، ولكنها انتبهت الى سمارة التي لم تحرك ساكناً، بعد ان سمعت كل ماقيل، واستمرت في شرودها ودموعها التي بدأت في الهطول مرة أخرى، وطلبت فتحية من صديقتيها النهوض وغسل وجوههما، للذهاب الى غالية وتسليم الإيراد بعد أن عاهدت بسيونة على حل تلك المشكلة.

– إيه الحكاية ... منظركو عكر ليه؟ ماكانش في شغل النهاردة ولا إيه؟

خرجت الكلمات من فم غالية المكفهرة الوجه كطلقات رصاص، على غير عادتها وكان شيئاً ما هو ما يعكر مزاج المعلمة الكبيرة.

– ليه يا غالية... دي الغلة النهاردة مبشبشة على الاخر.

أجابتها فتحية معطية لها كيس النقود، وهي ترمق الأخريان بالنظرات كي تحاولا أن تكونا على سجيتهما، وبعد أن أعطت غالية كل فتاه نصيبها، استأذنت فتحية للمغادرة هي وبسيونة، مودعتين سمارة على لقاء في المساء و التي اتجهت مباشرة الى حجرتها وهي مازالت في حالتها الشاردة. ولحقت بها غالية بعد برهة قصيرة متسائلة عن سبب حزنها ومظاهر الغم البادية عليها، ولكنها تعللت بالتعب و الإجهاد ولم تنبس بكلمة، وأخذت غالية تحكي لها عن قلقها من الشاكوش، و أن

فئران صدرها بدأت تتحرك ... و تحدثها بوجود ملعوب رسمه له شحاتة قبل وفاته.... وأنها تشعر ببوادر الغدر منه... ولذلك يجب عليهما أن يؤمّنا نفسيهما تحسباً لما قد يحدث من مفاجآت القدر، وأخذت غالية فى سرد حكايات ونوادر عن الغدر والخيانة، وسمارة فى وادٍ آخر بعيد عما تفكر فيه غالية، التى نهضت بعد أن لم تجد تجاوباً منها، واتجهت الى المطبخ لتعد طعام العشاء، وعلى طبلية الطعام انكفأت كل واحدة منهما فى التفكير بحالها، ولم تتبادلا الحكايات كعادتهما كل ليلة . وبعد أن فرغت كلتاهما من الطعام استأذنت سمارة فى الخروج لمقابلة فتحية وبسيونة لإحساسها بالملل والاختناق فأذنت لها غالية معطية لها خمسة جنيهات لكى تفرّج عن نفسها وصديقاتها.

واتجهت سمارة الى عشة فتحية زاعقة عليها، وبعد برهة خرجت إليها وهى مرتدية ملابسها، واتجهت الاثنتان الى عشة بسيونة، والتى رفضت الخروج لإحساسها بالاجهاد ووجود أبوها وضيفه الليبى الثقيل . فإنصرفتا بعد محاولات منهما لإقناعها بالخروج، واتجهت سمارة وفتحية الى الكورنيش كعادتهما وبدأت فتحية الحديث محاولة أن تخفف الهم الجاثم على صدر صديقتها:

– أمى كل شوية تسألنى عن الهدوم و الفلوس اللى معايا وأنا عارفة إنها واخدة بالها، بس عاوزانى أقول لها عشان تقسم معايا، شوفتى الولية الوسخة، بس ده بعدها .... أنا كل شوية تطلع فى دماغى إنى أطفش، وأهج من الباكابورت اللى أنا عايشة فيه...

وانسابت دمعات حارة من عينيها سرعان ما أزاحتها بكف يدها بتحد مبتسمة الى سمارة قائلة:

– أنا هاقعد أكلم نفسي وهانساكي ولا إيه؟ وبضحكة قصيرة ممتزجة بحنان تدل عليه تلك اليد الممدودة التي تداعب كتف سمارة.... قوليلي يا بت إنتي بقى... هو فيه إيه؟.. من ساعة حكاية العيال اللى كنا عندهم وحصل الى حصل و إنتي متغيره.. وحياة سيدي المرسي ماانا سيباكي لحد ماتقوليلي مالك.

– أنا جتلك النهاردة علشان مش قادرة يا توحة..... عاوزة أفضفض..... حاسة إني مخنوقة.

قالتها سمارة بصوت محتقن بالدموع المترقرقة في عينيها، وبعد أن أقسمت لها فتحية بعدم البوح بما ستقوله لها، بدأت سمارة في حكي قصتها، وعلامات الدهشة و الفزع تعصف بمشاعر فتحية البادية على وجهها، و التي لم تقو على مقاطعتها، وأطبقت سمارة صامتة بعد ان أنهت ما بدأته والدموع التي لم تجف من عينيها طوال الحكي، عم السكون على الفتاتين، عدا صوت موج البحر في ساعة الغروب، وصوت اشتعال عود ثقاب في يد فتحية وهي تقترب بأصابعها الى تلك السيجارة الموضوعة في فمها، معطية أخرى الى سمارة.

– يااااه يا سمارة... كل ده شيلاه لوحدك؟ والواد اللى وقع من طوله ده يبقى ..أخوكي؟! دي كانت هتبقى مصيبة سوده بس ربنا ستر.. أنا بصراحة مش عارفة أقولك إيه؟ أنا حاسة إن في ضرب طوب جوه دماغي..

ويدأت فتحية في التحدث لنفسها بصوت عال كالمجنونة، وعلامات الاستفهام تنهي كل جملة تنطقها..

– هو شحاتة ليه مارجعكيش لأهلك؟... وغالية كانت بتخوفك إنك ترجعي ليه؟.. وكدبت عليكي ليه في موضوع أم محروس؟... دي أمي

وأمها الله يرحمها هما اللى راحوا بيها للداية علشان تطاهرها، يعنى هى عارفة كل حاجة، ولو على كلامها... طب ماهى كانت شغالة، والطهارة ممنعتهاش من الشغل؟!... وسكتت برهة ثم أكملت..... الموضوع كله عند شحاتة وغالية... وأدى شحاتة مات مايفضلش غير غالية، وأكيد الشاكوش زى حالاتك كده....

وقطعت جملتها مستدركة المعنى المهين لَا قالت، ونظرت الى سمارة الجالسة بجوارها و التى تحول لون عينيها الى الاحمرار على الرغم من جفاف دموعها، وأطرقت الى الأرض كمن ندم على قول شىء ماكان يجب أن يُقال ...

– معلش يا سمارة... أنا ماقْصُدش، بس الحكاية من أولها لآخرها تبرجل العقل.. بس إنتى لازم ترجعى لأهلك، دول مهما كان مش هايؤذوكى...

– إنتى عاوزانى بعد السنين دى كلها أرجع؟!..أرجع وأقول إيه؟!.. وغير كده إنتى ما بتسمعيش عن سِلْو الفلاحين، يعنى هايجيبوا الداية تكشف على بِتْهم علشان يقولوا للناس بتنا شريفة... الله يقطع الشرف وسنينه... يعنى الفضيحة هاتبقى بجلاجل، خلينى كده لغاية ماالاقى حل... ووحياة العيش و الملح تنسى اسم بديعة ده خالص.

– عيب يا سمارة... أنا ماسمعتش ولا حاجة، بس والنبى بكرة تجيبيلى الفلوس اللى مكنفاها عندك عشان محتاجاها، ولما نشوف بكرة فيه إيه!

واحتضنت كلتاهما الأخرى على ميعاد للقائهما غداً . واتجهت كل واحدة فى طريقها الى بيتها، يتردد صوت سمارة مرة أخرى بحكايتها فى رأس فتحية الغير مصدقة لما سمعت، محاولة أن تجد سبباً يجعل

كلاً من شحاتة وغالية يجردان طفلة خانفة من أحداث لا يد لها فيها، من ثوب البراءة و الفطرة التى جبل بها الله الإنسان، واضعين كل ما هو ذميم لكى يتساوى الصالح بالطالح ، ومع اقترابها من بيتها، انتزعتها صرخات بين دروب العشش، فهرولت مسرعة الى أن تجمدت فى مكانها بين أهالى العشش المتحلقين أمام بيت بسيونة وعربة الإسعاف تزعق بصوتها الحاد، وحمالة يرفعها رجلان تخرج من العشة التى تحولت الى كومة رماد، عليها جسد محترق غير محدد المعالم، وأصوات التكبير تخرج من الافواه، وأُسْقِط فى يدها عند سماعها بأن بسيونة أشعلت النار فى جسدها، وقد كانت آخر كلمة تعيها قبل ان يغشى عليها.

******

لم تدر سمارة سبباً لذهابها الى القهوة لملاقاة الشاكوش، ولكنها بمجرد أن اقتربت من القهوة، وأصبحت فى مرمى بصر الصبى صابر الذى رمقها بنظرة مرتجبة، أيقنت أن هناك خطباً غير عادى، فانزوت فى اول مدخل حارة قابلها دون أن تلتفت خلفها، وانتظرت برهة حتى لحق بها الصبى، وأخبرها أن الحكومة قد داهمت منزلهم، وقبضوا على غالية، وألقوا بها فى العربة الحديدية، بعد أن فتشوا المنزل عنها وعن الشاكوش، وحذرها الصبى من الاقتراب ناحية المنزل لانهم فى انتظارها هى و معلمه..وانصرف الصبى بعد أن أكدت عليه أن يفعل مع الشاكوش عندما يقترب من القهوة مثلما فعل معها، وأن ينتبه للقهوة ويعتبر نفسه مسئولاً عنها لحين معرفة أسباب تلك الغمة، وانصرف الصبى متجها الى القهوة، و أطرقت تفكر الى أين يمكن أن تذهب، لولا يد ثقيلة هوت على كتفها ممسكة بها ككلابة من حديد قال صاحبها:

- إيه يا حلوة...

انتفضت سمارة عند سماعها هذا الصوت الأجش و اليد الخشنة الثقيلة متسائلة بصوت مهتز حاولت أن يبدو استغاثة من فتاة تتعرض للتحرش ولكن دون جدوى، فقد خرج صوتها مرتعشا ضعيفا:

- في إيه يا عم؟

- هو أنا جوز امك يا بت..... يالا ياروح أمك قدامي.... أحسن أحتتفك، إنْجرى يا بت....

وكال لها سيلاً من الشتائم المعروفة عند هذه الفئة البوليسية المتدنية. وقادها أمامه حتى وصل الى سيارة الشرطة المنزوية بجوار المنزل، وكل نساء الحارة قابعات في شرفات منازلهن، يمصمصن الشفاه.... يقذفن بالسباب كل واحدة بدورها:

- خاللي الحارة تنضف من الوساخة..

- الله يفضحكم..

- وقال إيه .. عملنا الواجب معاكم.. الله يحرقكم

وشيعت عربة الشرطة بالبصاق والدعوات الساخطة، حتى توارت عن الأنظار . وبمجرد دخول سمارة قسم باب شرق، وسماعها أصوات صراخ غالية المتردد بين جدران القسم، تحت لهيب سياط المخبرين، حتى انهارت باكية، ثم أغشي عليها لفترة، لم تدر كم طالت بعد أن فتحت عينيها بصعوبة محاولة أن تحدد معالم المكان الحالك، وتبينت.... بعد أن تعودت عيناها على تلك الظلمة.... ذلك الجسد المتشح بالسواد، متكور على نفسه، لا تظهر منه مقدمة أو مؤخرة، قابع في ركن من أركان الغرفة الضيقة الملفوفة باللون الأسود، تخترقه خطوط من نور ضعيف صادر من مصباح صغير في سقف الحجرة المرتفع الى اكثر

من ثلاثة امتار، وبالرغم من ذلك لا يستطيع الناظر ان يتبين ملامح الواقف آمامه بسهولة، وانتبهت سمارة على آلم شديد يضرب مابين كتفيها، بسب ارتفاع ذراعيها الى حبل مربوط بمعصميها، معلق طرفه الآخر فى حلقة مثبتة فى سقف الغرفة، وسمعت أنات صادرة من تلك الكومة السوداء، والتى تبينت بعد فترة أنها جسد غالية، وبصوت ضعيف مرتعش نادت عليها :

- غالية...غالية...غالية... إيه اللى حصل ؟ إحنا هنا ليه؟

- سامحينى يا بديعة ...سامحينى يا بديعة..

واندهشت سمارة من تكرار غالية لاسمها القديم، و همت بسؤالها مرة أخرى ولكنها أطبقت ساكتة بعد سماعها وقع أقدام تقترب من باب الغرفة، وقبل أن يفتح باب الغرفة بصرير مزعج، هتفت غالية بسرعة وضعف، قائلة:

- خلاصك فى اسمك يا بديعة...

ولم تسمع سمارة صوت غالية بعد ذلك أبداً، بعد أن انفرج الباب عن شخص طويل القامة، نحيف، مهندم الملبس مما يوحى برتبته، وخلفه ينتصب رجلان تدل هيئتهما على مهنتهما، يمسك أحدهما كرباجاً يلفه حول ذراعه، ويضع الآخر يديه خلف ظهره بإستكانة خلف الضابط الذى بدأ حديثه بهدوء الى سمارة المعلقة عارية تماما، قائلا:

- إسمعى الكلمتين دول علشان ما تتعبيش الرجالة اللى ورايا... تعترفى بالراحة ...هانّزلك من الكمبوشة، وهاتروحى النيابة على رجليكى.. أما لو سُوقتى العَوَجْ ، هانِرْفَعِك على الصاروخ، لغاية ماتقِّرى وتعترفى... قولتى إيه؟

وكما أراد الضابط، كانت لكلماته وقع السحر على سمارة، التى على

الرغم من امتهانها للدعارة بكل ما تحمله تلك المهنة من غرائب خارجة عن المألوف، إلا أنها آومـات برأسها بالإيجاب مما جعل جسدها كله يهتز ويرتعش . وأكمل الضابط بهدونه السابق

– إيه حكاية الولاد بتوع شارع طيبة فى الإبراهيمية؟ ومين صَحْبِتِك اللى كانت معاكى؟

أجابت سمارة بصوت مرتعش:

– أنا كنت لوحدى يابيه.

أشار الضابط الى المخبر الواقف عن يمينه بطرقعة من أصبعيه، فانقض على الجسد العارى بالكرباج الممسك به والذى لم تحتمل ضربة واحدة منه حتى تسرب الماء الدافىء من بين ساقيها على الأرض حتى وصل الى قدمى الضابط و صرخت مرددة اسم بسيونى حتى تنهى ضربات الصيات الواقعة على جلدها الذى تلون بخطوط حمراء.

– تمام يا حلوة... بس بلاش تختبرى قوتك معانا... بدرى بدرى وخلّصى أحسنلك، إحكى بقى إيه اللى حصل بالظبط.

بدأت سمارة تحكى بالتفصيل بعد الذى خَبَرْته منذ قليل، ولكنها أغفلت سرها الذى اكتشفته، وأن الراقد أمامها ليمارس الرذيلة معها كان أخوها.

– برافو عليكى يا سمارة....

وأشار الى المخبرين القابعين خلفه بأن يقوما بإنزالها والتوقيع على أقوالها، والتى تعترف فيها بأن غالية هى القوادة التى تقوم بتسريحها وبسيونة، وبأصابع مرتعشة مما عاشته منذ قليل، و اعتمادها على ماكانت تُعَلِّمه لها فتحية من قراءة وكتابة، أمسكت سمارة بالقلم ووقعت اسمها فقط بخطوط متعرجة، ولكن ذلك لم يرض الضابط فأمر بإحضار

ختامة لكى تبصم بها. وخرج الضابط يصحبه مخبروه، وتكومت سمارة بجوار جسد غالية التى كانت غائبة عن الوعى تماما. وحاولت إفاقتها دون جدوى حتى استنجدت بالعسكرى الرابض امام باب الغرفة، والذى بدوره أخبر ضابط المباحث، وأتت سيارة الإسعاف ناقلة غالية الى المستشفى فى حراسة مشددة بأمر من الضابط . ليتم الكشف عليها ووضعها تحت الملاحظة . ولكن حالتها ازدادت سوءاً بعد أن حطم المخبرون ضلوعها، ولكن كان المرض الذى أودى بحياة شحاتة قبلا قد سكن كبدها على مدار أعوام الانبطاح أسفل شحاتة، و الذى أودى بحياتها بعد يومين من دخولها المستشفى لاحقة بشحاتة.

وأمام وكيل النيابة وقفت سمارة حانية الجزع، مطأطئة رأسها وهى تنظر الى مابين قدميها لا تدرى عن أمر غالية شيئا، وبدأ وكيل النيابة فى استجوابها:

– معاكى بطاقة؟

– لأ يا بيه.

– طيب ..اسمك وسنك وعنوانك؟

تذكرت سمارة كلمات غالية قبل وفاتها بأن خلاصها فى اسمها، وعلى الرغم من عدم فهمها لغزى ما قالته غالية إلا انها أجابت:

– بديعة يوسف العباسى، 28سنة... حارة أبو رفعت فى بحرى.

– إنتى عارفة مكان بسيونة؟

– أيوة يا بيه... عشش الصفيح، ورا محطة القطر فى سيدى بشر قبلى.

– طيب على العموم إحنا بعتنا نجيبها...

وطرق الباب ودلف الى الحجرة عسكرى يحمل مظروفا أصفر كبيراً،

وآدى التحية وانصرف، واخرج وكيل النيابة آوراقا ممهورة بختم المستشفى الميرى، واطلع على ما بها و أطرق ساكنا ثم قال وهو يرمق سمارة من أسفل نظارته:

– هى غالية تقربلك إيه يا بديعة؟

– تبقى خالتى .. ومربيانى يا بيه.

– على العموم هى كانت عيانة وتوفت النهاردة الصبح فى المستشفى..

انهارت سمارة تماما عند سماعها نبأ وفاة غالية، ليس حزنا عليها، بقدر إحساسها بوحدتها فى تلك المحنة، وعدم معرفتها بما يجب أن تفعله، بعد أن ظهرت علامات الاستفهام الكثيرة التى بدت كومضات فى مخيلتها دون إجابة.

*****

لحِقَ صابر بمعلمه فى مكتب التموين بالمنشية، بعد أن داهمت قوة من الشرطة بيت شحاتة .. وقبضت على غالية، سائلين عن الشاكوش وسمارة، وأخبره بإنتشار المخبرين فى المنطقة انتظاراً لقدومه . وأُسقط فى يد الشاكوش، لا يدرى سبباً لمطاردة الشرطة لهم، وعقد العزم على الذهاب الى شقة الإبراهيمية، بعد أن وصى صابر على القهوة، واتجه الى شقته ليختفى عن العيون الباحثة عنه ويفكر فيما يجب أن يفعله، ولم ينتزعه من شروده سوى نقرات خفيفة على باب الشقة .. والتى لا يعرف مكانها سوى أربعتهم ...فبدأت الأفكار السوداء و التساؤلات تندفع الى خياله، فربما قد أرشدتهم سمارة عن مكانه بعد أن وقعت فى قبضتهم، ولكنه انتبه على صوت فتحية قائلة:

– إفتح يا شاكوش... أنا فتحية.

فنهض مفزوعاً وفتح الباب لفتحية مندهشاً لعلمها بوجوده الآن فى الشقة، فأوضحت له بعد أن دلفت الى الداخل، وارتمت على أول كرسى أمامها، بأنها قد ذهبت اليه فى القهوة، ولكنها شعرت بأعين متلصصة غريبة تتفحص المارين، فأرسلت طفلاً صغيراً الى صابر مستدعية إيّاه، وقد شرح لها ما حدث بعد أن قابلته بعيداً عن القهوة... فلم تفكر كثيراً عن مكان اختباء أفضل من المُكْنَة الخاصة بهم، ونظرت اليه طويلا...

– عينيكى بتقول إنك عاوزة حاجة !

– طابعا عاوزة ..إنت اللى يعرفك يعوزك على طول.

قالتها فتحية للشاكوش بغوى نسوى عاهر.

– أنا مش فايق يا توحة.. أنا عاوز أعرف إيه الحكاية .. لولا ستر ربنا، والواد صابر قابلنى فى المنشية، أنا كنت وقعت فى إيد المخبرين اللى منتشرين حوالين البيت و القهوة.

– تعال ...أروّقك وأفَوَقك... وأحكيلك على كل حاجة، الواد صابر هجّاص، كبّر الحكاية على الفاضى، هى غالية وسمارة بياخدوا منهم كلمتين فى النيابة وخلاص... تلاقى حد من جيران الهنا مقدم شكوى ولا حاجة، سيبك دلوقت وتعالى نقعد قعدة مزاج وأقولك من طقطق لسلامو عليكو.

– طيب والحكومة عاوزانى أنا ليه؟

– يا عبيط ... مش إنت ساكن معاهم ..أكيد عاوزين يسألوك كام سؤال......

و نهضت فتحية متجهة الى الحمام لكى تجهز نفسها، وذهب الشاكوش الى المطبخ يصب لنفسه كأساً تجرعه مرة واحدة . واتجه الى غرفة النوم حاملا كأسين وزجاجة الخمر، وجلس يلف سيجارة له

ولفتحية التى خرجت من الحمام شبه عارية، إلا من قميص نوم شفاف، يظهر من خلاله تلك الحلمتين النافرتين، قابعتين على كتلتين من اللحم الأبيض المتكور على نفسه، ينسدل الى ما أعلى ساقيها بقليل، يشف ما تحته من جزء صغير مما بين ساقيها.

- إيه كبانية النور دى كلها؟

قالها الشاكوش الذى اتسعت عيناه من الإثارة، معطيا إياها سيجارة غليظة وكأسا من الخمر، وبدأت ترشف من الكأس ببطء، مع ذلك الدخان المتصاعد الى أجواء الغرفة، قائلة وهى تضع الكأس جانبا، مستلقية على السرير باسطة رجليها فى اتجاه الشاكوش الجالس على كرسى أمامه مطفئة الأنوار:

- أنا عوزاك تِطْبعَنى على ملاية السرير النهاردة.

انقض الشكاوش عليها قائلا:

- بس ليه الضلمة دى.. خلينا فى النور أحسن نغلط فى حاجة كده ولا كده.

- مش إنت قلت إنى كوبانية نور بحالها .. خلاص.. وأنا عوزاك تغلط فى كل حاجة النهاردة.

وبدأ الشاكوش فى افتراس فتحية، فى الظلام كحيوان جائع فى البرية، ويزيده جنونا تأوهاتها الصارخة..

- ياااه يا توحة ...إيه الحلاوة دى يا بت .. الدنيا تحت مزروطة خالص...

- شوفت إنت عامل فيّا إيه! ...

وهَم الشاكوش بالنهوض، ولكن استوقفته فتحية، ضامة جسده اليها مرة اخرى، إيذاناً ببدء جولة ثانية، والتى تفننت فتحية فى استخدام كل

ما تعرفه من مهارات فى عالم الجنس مع الشاكوش، الذى لم يكتف إلا بعد أن خارت قواه وتمدد بجوارها كخرقة بالية، و نهضت فتحية... بعد أن التقطت انفاسها... متجهة الى الحمام لتغتسل. وفى خلوتها بدأت دموعها تتساقط وهى تحدث نفسهاقائلة:

- أخذتلك حقك يا بسيونة .. أخذتلك حقك...

وأخذت ترددها والماء السائر على جسدها حاملاً معه دماء سوداء، منساب بين ساقيها مختلطا بدموعها الى بالوعة الحمام، وجففت نفسها بسرعة مرتدية ملابسها، واضعة تلك الخرقة الصغيرة بين فخذيها، وغادرت الشقة دون علم الشاكوش الذى سمع صوت ارتطام الباب، فنهض مسرعا وأضاء الأنوار، وهالته الصدمة من مشهد السرير الراقد عليه والسابح فى بحر من الدماء القانية . فانتفض مفزوعا ، لا يعلم ماذا حدث لكى تفعل فتحية فعلتها معه، واتجه الى الحمام بدوره ليغتسل بسرعة، وقد أيقن أنها كانت تريد قتله، ولكن لشيء يجهله، ولا يستبعد أن يرى الشرطة طارقة بابه بعد قليل . فهبط مسرعا الى المنشية ليرسل رسولاً الى صابر لمقابلته، وبعد أن حكى صابر كل ما حدث لبديعة وغالية، وعلم أنه هالك لا محالة إن قبضت الحكومة عليه، تذكر فى خضم تلك المصائب المنهالة عليه... كلمات شحاتة له قبل وفاته، و زيارة الشيخ طنانى فى شبرا النملة، فوجدها فرصة للهروب المؤقت ليعيد حساباته من جديد، واتجه مباشرة الى محطة القطار.

******

تجمعت النسوة حول ذلك المخبر الذى يسأل عن بسيونة .. وقبل ان تجيبه أي منهن أخذن يسألن عن سبب سؤاله، ولم يخبرنه بوفاتها إلا بعد أن أفاد بأنها مطلوبة أمام وكيل النيابة للتحقيق معها، وسمعت

فتحية صخب نسوة العشش، فنهضت من رقدتها عاصبة رأسها بمنديل أسود وقد صبغ السواد وجهها حزناً على صديقتها الراحلة، وقصدت المخبر الذى كان على مشارف الخروج من أزقة العشش بعد أن علم بوفاة من يسأل عنها، واستوقفته مُحيية إياه بسيجارة وابتسامة على الرغم من هيئتها الكئيبة، وانهمرت الكلمات من فم المخبر فى أذن فتحية بعد أن دست فى جيب معطفه ورقة نقدية، وقد امتقع وجهها وهى تنصت له، وانزوت فى ركن من أركان العشة، تفكر فيما يجب أن تفعله، أتذهب لزيارة سمارة؟... ولكن ماذا قالت لهم عنها؟... ولكن إن أخبرتهم سمارة عنها، فالأولى أن يأتى المخبر متسائلا عنها وليس عن بسيونة.... بدأت الأفكار تتقافز بعشوائية فى رأس فتحية التى أجمعت أمرها على الذهاب الى سمارة. ونهضت مسرعة الى قسم شرق باحثة عن المخبر الذى لاقته اليوم، فوجدته يتسامر جيئة وذهاباً مع بعض المجنَّدين، فاقتربت منه ملوحة له، فعرفها ودنا منها وقد ارتسمت ابتسامة ماكرة على وجهه:

– والنبى يا خويا ..إنت كنت عندنا النهاردة ..فاكرنى..

وأومأ المخبر برأسه وهو يتلفت يميناً ويساراً.

– أنا قَرِيبْتى محجوزة عندكو، وبقالها كام يوم، وحياة النبى أدّخلها لقمة و أشوفها عشر دقايق.

قالتها فتحية وهى تضع يدها اليمنى المضمومة على كلمة السر فى جيب معطفه العلوى كمكان تعودت عليه، ويدها اليسرى تحمل علبتين من السجائر تلقفها الرجل بلهفة الجائع.

ارتمت سمارة فى حضن فتحية، بمجرد أن رأتها، باكية منعية إليها خبر وفاة غالية:

- آنا ماليش حد غيرك إنتى وبسيونة.. حتى الشاكوش مسألش عليا، ولا حس ولا خبر. وروت لها سمارة حكاية ممارسة الدعارة، وكيف تم القبض عليها وعلى غالية.

- يا نهار إسود ...والحكومة عرفت منين؟

- الوادين اللى كنا معاهم، باين عليهم فاقوا وعرفوا إن إحنا سرقناهم وبلغوا عننا.

- إنتى هابلة يا بت... هما برضه لو اتسرقوا هايبلغوا يا عبيطة عشان يفضحوا نفسهم!!.. باين عليه الموضوع كبير قوى يا سمارة... إوعى تجيبى سيرتى في الحكاية... أنا عرفت إنك قولتى إن بسيونة كانت معاكى مش انا...

وانحشرت الكلمات فى حلق فتحية التى بدأت الدموع تترقرق فى عينيها وهى تسمع سمارة مستعطفة لها قائلة:

- والنبى قوليلها تسامحنى، أنا ماكانش قصدى أقول على اسمها، ده من الكرابيج اللى نزلت عليا، قولت أى اسم جه فى دماغى، بس أنا هارجع فى كلامي وهاقول إنى كنت لوحدى.

- مالهوش لزمة يا سمارة.. بسيونة تعيشى إنتى ..

انتفضت بديعة وبدأت الدموع تنساب من عينيها مرة أخرى، وأردفت بصوت متحشرج قائلة:

- إزاى.... إنتى بتقولى إيه....

- بعد الندل ما عمل عملته، واللى زاد وغطّا أبوها اللى حلف يمين طلاق إنها لازم تتجوز الليبى، ماستحملتش المسكينة و ولعت فى روحها.

ولم تتمالك الاثنتان نفسيهما وبدأتا النحيب وقد ارتفع صوتاهما فى

نوبة بكاء شديد، مما أقلق المخبر الناظر اليهما من بداية الطرقة المؤدية الى غرفة الحجز. وسعل مرتين إيذانا بإنتهاء الوقت، ولملمت فتحية نفسها محتضنة سمارة، والتى انتبهت لفتحية قائلة لها:

– يا عَالِم هاشوفك إمتى تانى يا توحة.. فلوسك فى كيس نايلون جوه عمود السرير بتاعى، بس خلى بالك الحارة كلها مرشقة مخبرين.

– طيب آخد فلوسك معايا ولا...

– فلوس .. نطقتها بإستهزاء .. خلاص يا فتحية، فلوسى كانت مع غالية، وراحت للحكومة. خللى بالك من نفسك يا توحة.

– أشوف وشك بخير..

وارتمت الاثنتان فى أحضان بعضهما البعض للمرة الأخيرة، وخرجت فتحية من القسم، عاقدة العزم على أمرين، أولهما تحويشة عمرها ... واتجهت مباشرة الى منزل سمارة فى بحرى، وانتهزت وقت غروب الشمس ليرمى بظلاله الباهتة فى الأزقة الضيقة، والتّفت من الشارع الرئيسى الى داخل الحارة الموازية للمنزل من الخلف، ودلفت الى شباك الحمام الخلفى الى الداخل، معتمدة على أن المخبرين سيكونون متابعين بأبصارهم كل رائح وغادى من الشباب بحثا عن الشاكوش . وصعدت الى الدور العلوى بهدوء، متجهة الى حجرة بديعة، وأخذت فى البحث داخل قوائم السرير الأربعة حتى وجدت ضالتها، وتحزّمت بغنيمتها واتخذت من مسار الدخول مساراً لخروجها. واتجهت بعد ذلك الى عشتها واضعة غنيمتها فى صندوق ملابسها، ثم خرجت تتجاذب أطراف الحديث مع أمها حاكية لها ما حدث مع المخبر ونساء المنطقة.

*****

استقل الشاكوش القطار المتجه الى القاهرة، وسأل أحد الركاب عن بلد تدعى شبرا النملة، فأشار له بالانتظار حتى موعد وصول القطار لها، وجلس الشاكوش على المقعد الخشبي ينظر من النافذة الزجاجية المهشمة الى أعمدة خشبية تومض أمامه بسرعة خاطفة، تقبع كخلفية لها تلك المساحة الخضراء اللامتناهية، وبدأت ذكرياته مع شحاتة تتبدل مكان تلك الاعمدة، وتظهر خلفها الكثبان الرملية الصفراء، وأكواخ سوداء من الصفيح الصدىء الناتيء وسط تلك الرمال، وصوت شحاتة وهو على فراش الموت يتردد كنغمات متتالية على مسامعه، واسم ذلك البلد الذى لم يسمع به من قبل .... أكان يقصد شحاتة إبعاد ظنون المتطفلين بِحَكْيه عن بعض القرى المترامية هنا وهناك فى الشرقية؟... وها هى أسراره قابعة فى قرية مجهولة بجوارهم فى الإسكندرية؟... طيلة حياته وهو يرى علامات الاندهاش و التساؤل تلاحق ذلك الرجل العجوز ..... وانتبه الشاكوش على صوت ينادى على من يسأل عن شبرا النملة، إيذاناً بقدومها بعد قليل، فنهض شاكراً دليله، وانتظر حتى توقف القطار على ذلك الرصيف القصير، مما اضطره الى النزول قبله بمسافة ليست ببعيدة . وعَبَر الشاكوش الرصيف، واجداً نفسه أمام طريق ترابى ضيق، تتراص على أحد جانبيه مباشرة أشجار الصنط الشامخة، تليها حقول خضراء على امتداد البصر، وعلى الناحية الأخرى من الطريق، ترعة تسير بمحاذاة الطريق الى ما لا نهاية، تليها أيضا حقول زراعية ممتدة للأفق. وبعد مسيرة ليست بقليلة، تراءت أمام عينيه بعض البيوت الطينية، الحاملة لأكوام من القش على أسطحها، وتناهي الى مسامعه صوت آذان ليس ببعيد، فبحث ببصره حتى وجد تلك المئذنة المنتصبة بين البيوت المنخفضة ذات الدور الواحد،

اتجه الشاكوش مباشرة الى المسجد، وأخذ يتلكأ حوله حتى انتهت صلاة المغرب، وبدأ يخرج المصلون، واستوقف الشاكوش أحد الخارجين سائلا عن الشيخ طناني، فأشار الى داخل المسجد ناحية الإمام. فاضطر الى خلع حذائه كما كان يرى، ودخل مسلّماً على الإمام جالسا بين يديه:

– أنا يا مولانا سعد محمود خليفة البغدادي ....

ولم يدعه الشيخ ليكمل حديثه، وإنما نظر اليه وهو يبسمل ويحوقل، ثم أردف قائلاً بهدوء شديد مشوب بنزعة حزن بادية على وجهه ذي اللحية البيضاء:

– لا حول ولا قوة إلا بالله ... متى توفي شحاتة يا بني؟

اندهش الشاكوش بعد أن عرّفه بنفسه، ولكن حيرته انتهت بمجرد أن أخبره الشيخ بأن قدومه يعني ان شحاتة قد مات كما كان متفقاً عليه، ونهضَ داعياً إياه لينزل ضيفا عليه في البيت حتى يُتم تلك الأمانة التي يحملها رغماً عنه، وحاول الشاكوش أن يعتذر لكثرة مشغولياته في الاسكندرية، ولكن الشيخ لم يدع له مجالاً للاعتذار قائلا:

– يا بني... الموضوع لا يصلح أن نتحدث فيه داخل المسجد .. فالكلام في المساجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الهشيم .. هيا بنا.

وغادر الاثنان متجهين الى دار الشيخ طناني وتساؤلات تدور في رأس الشاكوش عن علاقة هذا الشيخ الذي لم يتخيل في يوم من الأيام أن يكون شحاتة على صلة وطيدة برجل دين مثله.

– مد إيدك وماتتكسف يا إبني..الجودة من الموجودة.

نطقها الشيخ طناني تسبقه كلتا يديه الى صينية الطعام الموضوعة أمامه وسعد، واضعاً أمام ضيفه دجاجة وعدداً من أرغفة الخبز

الفلاحى، وتناول سعد لقيمات قليلة بعد أن فقد شهيته وعاف رائحة الطعام فجأة، مما أثار اندهاش الشيخ طنانى:

- إنت عامل نفسك غريب يا سعد يا ولدى... سم الله وكُل، ولا إنت تعبان من المشوار؟

- باين عليا كده يا عم الحاج.

أجابه سعد وإحساس الألم ينهش جوفه، ثم استأذن الشيخ فى النهوض للراحة، ولكن كان فى انتظارهم الشاى كعادة أهل الريف، وحاول الشاكوش معرفة حكايته والمعلم شحاتة وهما يتناولان الشاى، ولكن الشيخ الكبير أرجأ جلستهما لبعد صلاتهما للفجر لكى يستريح، واستأذن فى النهوض بعد أن رتب له مكان نومه، وراودت الشاكوش رغبة ملّحة فى تدخين سيجارة حشيش، ولكنه نفض الفكرة من رأسه مخبة افتضاح أمره عند أهل الدار، واستسلم للنوم الذى داعب جفونه بقوة مع طرقات تدك رأسه، ولم ينتبه الا على صوت الشيخ طنانى قائلاً :

- قوم يا سعد عشان نصلى الفجر..

- معلش يا سيدنا .. روح صلى إنت وأنا هاستناك..

- أاااهه.. أطرق الشيخ قليلا ثم نادى على زوجته .. جهزوا الماء الساخن للضيف ليغتسل..

قالها الشيخ ناظراً الى سعد الذى امتقع وجهه من الخجل، ولكن الشيخ استدرك بسرعة، وقال باسما:

- إنت عارف إن أنا عندى ابن أصغر منك شوية ... بس هو عنده نوباتجية فى المستشفى العام فى دمنهور.. أصله دكتور عقبال ولادك.

- ربنا يخلى يا سيدنا .. بس أنا خايف تتأخر عن الصلاة.

– ماتقلقش، لسه الفجر عليه ساعة.... أصل أنا بقوم بدرى علشان أشغل القرآن، يصحى الناس... المهم قوم واستحمى وإتوضى وتكالنا على الله.

وكان فى انتظارهم الإفطار فى قاعة الدار، بعد أن أتما الصلاة وقفلا راجعين، وبعد أن تناولا طعامهما، سأل الشيخ عن شحاتة وهما يتناولان الشاى.

– عم شحاتة مات فى المستشفى .. تعب شوية، وبعدين راح المستشفى وماطاولش كتير.. الدكتور قال إن عنده الكبد، وبعدها بكام يوم توفى، وكان منّبه عليّا إنى أجيلّك بعد ما آخد الحاجة اللى فى الصندوق... إنت عارف كان فيه إيه الصندوق؟

ونظر الشاكوش... والذى قد بدا صوته متحشرجاً وبدا عليه الانفعال قليلاً... الى الشيخ الذى أطرق رأسه الى الأرض ولم ينطق بكلمة.....

– كان فيه حُجة البيت والقهوة... وصك دين بعشرتلاف جنيه بإسمى... عاوز أعرف الحكاية إيه يا مولانا؟

سرد سعد الحكاية بإقتضاب حتى يستمع الى الشيخ طنانى، والذى أحس بلهفة الصبى لمعرفة أصل الحكاية.

– ربنا رحمه فى الدنيا يا سعد... ير حمه فى الآخرة إن شاء الله، لقد عرفت شحاتة منذ سبعة وعشرين عاما، حضر الى قريتنا وفى يده طفل صغير، لم يتجاوز الثالثة، ادعى فى البداية أنه ابن أخيه، وكنت وقتها إمام زاوية صغيرة مكان هذا المسجد، وعلى الرغم من أن شحاتة كان يحاول أن يظهر بمظهر التقى الورع، إلا أننى لم أثق به، فأردت أن أعرف حكايته فبدأت التقرب منه، بعد أن طلب أن يشترى داراً صغيرة،

وقطعة أرض ليبنى عليها حظيرة مواشى، لأنه تاجر مواشى كما قال لى ولأهل القرية، ولم تكن الفلوس عائقا أمامه فى شيء، مما آثار شكوكى تجاهه أكثر، وفى مرة من المرات دعوته على الغداء فى بيتى، وبعد آن فرغنا من الطعام، أوضحت له بأنى لا أثق فيما يتناوله أهل القرية من سيرته، التى يحاول أن ينشرها بينهم ليخفى شيئاً، وأنه إن كان يريد أن يعيش بيننا فيجب عليه ان يكون صادقاً معى، ومسئوليتى تجاه القرية تحتم علّى معرفة أصله وفصله، وإلا أبلغت الحكومة عنه. وبعد أن طمأنته الى أن كل ما سيقوله يعتبر سراً بيني وبينه، مهما كان ما سيقوله أو ما فعله، وشاهداً على ذلك الله العليّ، و بدأ فى الحْكى، وكيف أنه كان غفيراً نظامياً في قرية تدعى بخانس من قرى الصعيد، وكان متزوجاً من ابنة عمه فى دار صغيرة، ولم يرزقه الله منها بالذرٍّية لفترة من الزمن، وكان الحاج عواد إمام مسجد تلك القرية، و الذى يلجأ إليه كل ذى حاجة ومسألة، ويقصد داره كل محتاج، لقدرته على فك المربوط، و وقف العكوسات لسمعته وتقواه وورعه، حيث يلجأ إليه اهل القرية البسطاء لحل مشاكلهم والإصلاح بين الأزواج، والذين لا يستنكفون من سرد أدق التفاصيل له ليحكم بينهم بالعدل من وجهة نظرهم، وكانت النسوة دائما تخرج من صومعته منكسرات، لمواقعته لهن بحجة أنه يخرج الجن و الأرواح المعاكسة لحياتهن الزوجية، وكعادة أهل الريف لا تستطيع المرأة أن تبوح بمثل تلك الأمور التى تستوجب قتلها قبل قتل الفاعل لمحو العار الذى يلحق بزوجها. وقد كانت من تتأخر فى الحَمل تذهب للشيخ عواد ليفك لها عملاً أو يصنع لها حجاباً، ومثلها مثل غيرها، ذهبت زوجة شحاتة الى عواد، والذى راودها فى البداية عن نفسها، ولكنها كحٍرة أبت فعل الفحشاء لحبها

لزوجـهـا، وانصـرفت عـاقـدة العـزم على عدم زيارته مـرة أخـرى، ولكن الذنب لـم يرض بأن تمتنع عنه امـرأة أيا كـانت، فـبث فـي نفس شـحـاتة بأن زوجته عليها جن سفلى، هو مـا يمنـع حبلها، ولرغبته في أن يكون له ذرية، ركع شحـاتة على قدمي عواد لكي يجد لها حلاً، فأخبره العجوز بانه يجب عليه أن يملأ مـاعوناً كبيراً من الماء، وأن يتركه في العراء ليلا حتى إن أتى الفجر يحمله الى زوجته النائمة ساكبا إياه عليها ويبدأ في ضـربهـا بعرجـون نخلة حتى يغشى عليـهـا، ويأتي بهـا اليـه بعـد صـلاة المغرب، لينظر هـل يكرر تلك الوصـفة مرة أخرى أم لا، وصـدق شـحـاتة الذى تداعب الأبوة مـخيلته، وفـعل مـثلمـا قـال له عواد، وفـى المسـاء أتى شـحـاتة بزوجته اليه كما أخبره ، واختلى بها مـهددا بانه يستطيع أن يكف عنهـا الأذى إن هـى رضـخت له، وإلا سيصب عليـهـا جـام غضـبـه، وتوسلت إليـه المسكينة ليتركـهـا بشرفـهـا وزوجـهـا، ولكن جبروت عواد وكبريـاءه منعاه من سمـاع توسـلات الفريسـة والتى رضـخت فـي النهـاية اليه. ويكتب القدر كلمته، فبعد شـهر من تلك الحادثة، تخبر المرأة زوجها ودموع الفرح كمـا توهم شحـاتـة تنساب من عينيـهـا بخبر حملها، والذى جعل شـحـاتة يسـحب جـاموسـتـه الوحيدة من داره الى دار عـواد، زافـاً اليـه بشـرى بركتـه وخبر حمل زوجتـه، وانتشـر خـبر بركة الشـيخ عـواد، وكرامـاته مع شـحـاتة و زوجتـه، وبدأت التـهـانى تتردد جيئـة وذهـابا فى طرقـات القرية لشـحـاتة، والذى بـات رافـعـاً رأسـه مزهواً بحمل زوجتـه . وفي فجر يوم من أيام شـحـاته، وعند نهوضـه ليذهب الى النقطة ليستلم بندقيته الميرى ليبدأ في حراسة كشك محطة القرية، راعى سمعه همهمة كلمات آتية من أمام الدار، فتسحب حتى وجد زوجته جالسـة أمام الباب تناجى ربـهـا، لعلمـهـا كـانتى أن هذا الطفـل القـابـع أحشـائهـا ليس ابن

شحاتة، وأنها لاتريده لأنه سيُذَكِرها بعارها طيلة حياتها، وسمع شحاتة مناجاتها، فانقض عليها بالصفعات حتى حكت له ما حدث معها منذ البداية مع الشيخ عواد، فلم يدر بنفسه إلا ومنجل الزراعة فى يده يجز رقبة زوجته والدماء تصفع جلبابه ووجهه، واتجه الى دار عواد، و الذى قد كان آتياً من صلاة الفجر كعادته، فما كان منه إلا أن أطاح برقبة عواد الذى كان يهم بدخول داره، وأكمل شحاتة ما بدأه بدخوله الدار ذابحاً كل من وجدهم فيها... من زوجة عواد.. وابنه... وزوجته، وهَم بصغيرهم، إلا انه لم يقو على ذبح طفل صغير فى حجم سخْل ماعز، لا يعلم من أمر الدنيا شيئاً، فعقد العزم على الهروب بالطفل الى بلاد الله، بعد أن أخذ ما فى صومعة عواد من نقود.

انتهى الشيخ طنانى من سرد حكاية شحاتة معه، مع نظرات سعد الزائغة و دموع تترقق فى مقلتيه لا يدرى ماذا يفعل أو يقول، وبدأ إحساسه بالكآبة يزداد و يمرر حلقه، ولم يقو على احتمال حزنه لتخليَه عن بسيونة فى محنتها بالرغم من حبه لها .... وانهيار حياته ومطاردة الشرطه له.... وظهور تلك البثور المتقرحة منذ أن قدم الى تلك القرية..... وآلام تدق عظام جسده و التى يكتمها بصعوبة، فأغمض عينيه واستسلم لهذا الظلام الذى بدأ ينسدل من رأسه الى باقى جسده.

واستيقظ الشاكوش واجداً نفسه ممدداً على سرير أبيض فى عنبر مستشفى لا يدرى من أمره شيئاً، سوى وجه الشيخ طنانى العالق فى ذهنه، وانتبه على صوت يشبه صوت الشيخ، فالتفت ناظراً الى شاب يلبس معطفا أبيض بشوش الوجه، سحب كرسياً وجلس قبالة الشاكوش الراقد على السرير:

– أنا الدكتور صلاح ابن الشيخ طناني... حظك كويس لأني كنت راجع البيت في الليلة اللي اغمي عليك فيها من تلات أيام، أول حاجة لازم تعرفها إنك كنت هاتموت... وبما إننا شباب زى بعض ، لازم تقول لي مين اللِّي عملت فيك كده؟

– مالهوش لازمة يا دكتور... ربنا يسامحني ويسامحها.

– إنت حر في حياتك... بس لازم تعرف إنك كنت مع واحدة عليها الحيض... يعني الدورة... وده أخطر سم ممكن يقتل الراجل من غير ما يحس. على العموم لازم تستنى في المستشفى شهر كمان لغاية ماتخَلص الحقن، بعد كده تقدر تمشي على رجليك، بس يا عالِم ... ممكن تقدر تخلِّف ولا لأ!

أغلق سعد عينيه ولم يجد ما يقوله للطبيب، ومكث في المستشفى كما طلب منه ابن الشيخ طناني، والذى لم يتركه يغادر الى الاسكندرية ، إلا بعد أن استرد عافيته. واستأذن الشيخ و ابنه في مغادرتهم لوجود أشياء يجب أن يتم عملها بنفسه. وودعه الشيخ محذراً إياه من أن الله يمكن أن يغفر الذنوب جميعا المتعلقة بعباداته، ولكنه لا يمكن أن يغفر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد.

*****

لم يوجه وكيل النيابة تهمة القتل لسمارة في أولى جلسات التحقيق، لحين ورود تقرير الطبيب الشرعى، ولكنه أحكم أدلة الاتهام بممارسة البغاء لها، والتي كانت تجهل السبب الرئيسي للقبض عليها .... وأخذت تفكر في كلمات فتحية في آخر لقاء معها، وأن ما يدور حولها لهو أكبر من مجرد سرقة أو ممارسة الدعارة. وفي جلسة التحقيق الثانية وبعد أن أثبت الطبيب الشرعى أن القتيل توفى نتيجة هبوط حاد في الدورة

الدموية سببه جرعة مفرطة من الحشيش، وأوضح وكيل النيابة سبب القبض على سمارة والراحلة غالية، والبحث عن الشاكوش، وأنه بذلك فقد انتفت تهمة القتل، وبقيت تهمة ممارسة الدعارة، وبدهشة صادقة قالت سمارة لوكيل النيابة والذى أخذ يتفحص الأوراق التى أمامه:

– أنا مش فاهمه حاجة يا بيه؟

– هافهمك بعدين .. بس أنا شايف إنك ماعكيش بطاقة ولا شهادة ميلاد ، وتحريات المباحث راحت العنوان اللى كنتى ساكنة فيه، وشيخ الحارة قال إنك والمدعو شحاتة وغالية والشاكوش سكنتوا من فترة قريبة وإن إنتوا مش من المنطقة . ودى مشكلة كبيرة قوى يا بديعة.... وحاجة تانية لازم تاخدى بالك منها كويس... إنتى قولتى اسمك الثلاثى، وانا شايف إن اسم الشاب المتوفى زى اسمك... يعنى إخوات.. يعنى لو كنتى بتألفى وتلخبطى فى المحضر وتحقيق النيابة عشان تبوظى القضية... تبقى غلطانة، لأن ده اسمه تزوير فى أوراق رسمية ... يعنى هاتروحى فى داهية غير الداهية اللى إنتى فيها... وعلى العموم انا هاطول بالى عليكى ... وواحدة واحدة معاكى.... قوليلى بقى إنتى إتولدتى فين وإحنا هانقدر نجيب الورق بتاعك؟

أسقط فى يد سمارة، محاولة ان تفهم كل ماقاله وكيل النيابة من خيوط متشابكة، والتى حاول عقلها المجهد ان يستوعبها دون جدوى، إلا من كلمة المتوفى الذى هو فى حقيقة الامر شقيقها. وبدأت معالم الغرفة تهتز و تختفى من أمام عينى سمارة، والبكاء والنحيب المتزج بالضحكات الهستيرية، جعل وكيل النيابة يأمر بايداعها غرفة الحجز مرة أخرى ليكمل معها التحقيق لاحقا، ودخل العسكرى ليتأبط ذراعها ساحباً إياها الى غرفة الحجز، مخبراً الوكيل بقدوم والد الشاب القتيل

لغلق التحقيق، مما زاد من صراخ سمارة الممتزج بضحكاتها، ولطم وجهها فى آنٍ واحد، وهى تردد كلاماً غير مفهوم لمن حولها، خارجة من غرفة التحقيق مصطدمة بعينى والدها الحانى على عكاز خشبى أمام الغرفة فى انتظار الإذن بالدخول.

– شحاتة..سمارة.. اخويا ... أبويا .. خلاصك فى اسمك......

أخذت تردد سمارة بالعويل و الصراخ والضحك وقد زاغت عيناها فى وجوه القابعين أمام الباب، واستنكر الرجل العجوز ما رآه من تلك المجذوبة الخارجة من مكتب الوكيل، ودخل مطأطئ الرأس امام وكيل النيابة لكي يغلق التحقيق، ولكن بفراسة أهل القضاء، أثار فضول وكيل النيابة هذا التشابه الغريب فى الأسماء بين الجانى و الضحية، ومما زاد من شكوكه تلك الحالة الهستيرية التى أصابت سمارة منذ أن بدأت تتكشف الأمور أمامها.

– شد حيلك يا حاج.. الأعمار بيد الله...

– البركة فى دين سيدنا محمد يا باشا.

– أنا عارف إن الوقت مش مناسب، بس أنا كنت عاوز أسألك سؤال غريب شوية... إنت عندك بنت اسمها بديعة؟

وانتفض الرجل مذعوراً كمن أصابته جمرة نار، واتسعت عيناه جاحظة من محجريهما قائلا بلهفة:

– عرفت منين يا باشا ؟... إنت تعرفها... تعرف مكانها؟.... قوللى إعمل معروف..

وانطلقت الكلمات متوالية من فم الرجل المسكين، والذى نسى فجيعته فى ابنه، بعد أن استطاع وكيل النيابة فتح مقبرة أغلقت منذ زمن بعيد، لينكأ جراح الرجل من جديد.

- بس إهدى شوية.. وإحكيلى الحكاية من الأول.. علشان أقدر أساعدك.

وبدأ الرجل فى سرد حكاية بديعة منذ مولدها حتى اختفائها فى اليوم المشئوم، وبحثه عنها وأهل حارة دعمص فى القرى المجاورة وإبلاغه المركز بإختفاء ابنته ذات الستة أعوام، ولكن دون جدوى، حتى أنه كان يراقب الترعة المارة فى منتصف القرية كل يوم، عسى أن تطفو جثتها، وقد طرقت والدتها كل أبواب المشايخ و الدجالين حتى أقعدها المرض صريعة الفراش . أنصت وكيل النيابة وهما يرتشفان الشاى الذى أمر له به، وهو يتابع ترتيب الخيوط التى بدأت تتضح أمامه، وعلامات الدهشة والتعجب بادية على ملامحه كأنه يشاهد فيلما سينمائيا تتجسد شخوصه أمامه. وأطبق صامتا لفترة طويلة، لا يدرى لأول مرة على غير العادة، كيف يتصرف فى هذه القضية؟ كيف يخبر الأب المكلوم بأن ابنته الضائعة تقبع فى الغرفة المجاورة بتهمة الدعارة، وأنها السبب فى موت أخيها؟ وانتبه على صوت الأب متوسلا له بأن يخبره بمكان ابنته.

تنهد وكيل النيابة واستدعى العسكرى من خلف الباب برنة من الجرس فى طرف المكتب، آمراً بحضور بديعة من الحجز مرة أخرى. وأسقط فى يد الأب عند سماعه اسم بديعة و الحجز، واستبقت صرخات بديعة وضحكاتها المتتالية القصيرة، دخولها حجرة الوكيل، وسقطت متشنجة على الأرض عند رؤيتها أبيها، الذى جحظت عيناه فاغراً فاهه لا يقوى على النهوض وقد تلون وجهه بحمرة شديدة، مما أدى الى استدعاء سيارتى إسعاف الى مقر النيابة، و قد حملت إحداهما جسداً ملفوفاً من طرفيه بملاءة بيضاء وقد اتخذت طريقها الى

مشرحة كوم الدكة، بينما الأخرى حملت جسداً منتصباً على قدميه، يلفه قميص ذو أكمام طويلة مربوطة من الخلف، وقد اتخذت هى الأخرى طريقها... ولكن الى مستشفى المعمورة للأمراض النفسية و العصبية، فى أقاصى المندرة القبلية.

*****

بعد أن أغلق صابر القهوة، عند منتصف الليل، وتلفح بالشال الصوف متدثراً من برد الشتاء، وجد يداً تربت على كتفه بهدوء وهو يضع القفل النحاسى على باب القهوة الخشبى، فانتفض متلفتاً خلفه بفزع، ولم يهدأ انزعاجه من هذا الشخص المتلثم برداء فلاحى ووشاح يخفى به وجهه، سوى إماطة الوشاح عن وجه الشاكوش، والذى تأبط زراع صابر منزوياً به فى حارة ضيقة يلفها الظلام، وبدأ صابر يقص على معلمه كل الأحداث منذ غيابه حتى لحظة وقوفه بين يديه، وانهمرت الأخبار السوداء بمطارق تدك رأس الشاكوش الذى أحس بدوار فى رأسه، فقام صابر بتسنيده حتى أجلسه على الرصيف المرتفع، وقد احترم لحظات سكوت معلمه الذى أطرق شاخصاً بصره الى المياه السوداء الراكدة فى حفر متناثرة على الأرض، وقد أمسك بيد صابر قائلا:

- إسمع الكلام ده وماتنساهوش يا صابر...

وأخرج ورقاً أزرق من بين طيات ملابسه، داساً إياه فى يد صابر الذى كان مدهوشاً مما يسمع ويحدث من المعلم الشاكوش....

- ده ورق الحجة بتاع البيت و القهوة، واعتبر القهوة بتاعتك والبيت بيتك... ولو ربنا مقدر إن سمارة تطلع من المستشفى فى يوم من الأيام... إفتكر إن الحاجة دى بتاعتها...

وانهى حديثه مع صابر بكلمات مقتضبة مودعاً إياه فى عجالة... ولم يترك له فسحة للتساؤل. وكانت تلك المرة الاخيرة التى يرى فيها صابر المعلم الشاكوش.

*****

أشار ياسين الى الجارسون، ووضع فى كفه ورقة مالية فئة العشرة جنيهات، حتى يضمن أن يفك عقدة لسانه دون تملُّل. وسأله عن تلك السيدة الجالسة أمامه على الرصيف، والتى أثارت اشمئزاز علىّ، وأجابه الجارسون بأنها السيدة بديعة، وقد وجدها كما هى منذ أن جاء الى العمل بهذا المحل منذ عشر سنوات:

– هى بتشتغل فى قلة الادب؟

نظر الولد الى محدثه بإستغراب من ذلك المصطلح المحترم الذى نطقه ياسين:

– يا بيه الدنيا رمضان... خلّى الحاجات دى لصحابها..

– يا بنى آدم أنا باستفسر بس.. إنتى شايفنى إيه يعنى.. ماتفتّح مخك.

– أنا آسف يا بيه.... فهمت غلط... على العموم اللى يعرف حكايتها المعلم مينا صاحب المحل.

ونهض ياسين مسرعاً كتفاً بكتف الولد حتى يتحدث مع المعلم مينا قبل أن تصله رواية ملفقة من الجارسون، وبادره بوقار وهدوء:

– هما سؤالين بس يا معلم مينا ومش هاعطلك.

– أوامرك يا بيه؟.. لو فى حد مزعلك قوللى وانا أجيبلك رقبته؟

أجاب المعلم مينا بوجه بشوش وصدق فى القول.

- معلهش هو سؤال سخيف شوية... الست بديعة اللى قاعدة هناك دى.... وأشار الى ركن بعيد فى اخر الرصيف.... إنت تعرفها من إمتى؟

- دى ولية فقر.... أنا حاضرها فى المنطقة من وقت ما فتحنا المحل ده من ٢٥ سنة، فى الأول كانت بْتلقَط زباين من الشارع زى الطلبة الغشيمة، بس كانت أول ما تروح معاهم تجيلها حالة هياج وتعمل فضيحة بجلاجل، عشان كده كل العيال بتوع الجامعة بيحذّروا بعض منها... أصلها كانت فى العمورة.... وأشار بأصابع يده ناحية رأسه محركاً إياها حركة دائرية...... وفضلت هناك يجى كده عشرة خمستاشر سنة، يعنى لو كان فى برج فاضل، يبقى السنين دى ضيعته خالص.

- وهى مالهاش سكن؟

- لا يا بيه... دى فى غير رمضان بتروّح بعد العشا... عند واحد صاحب قهوة فى بحرى اسمه المعلم صابر... بتبات عنده فى القهوة، وبيساعدها باللى ربنا مقدره عليه... أصله راجل محترم، دايما يقول ماحدش عارف الخير فين.... أصل أنا شوفته فى بحرى، وسلمت عليه فى قهوته اللى قدام النقطة.... وعرفت بالصدفة إن بديعة بْتبَات عنده.

- شكرا يا معلم ..بس هى إيه اللى جننها كده؟

- بيقولوا إنها كانت بتحب واحد وبعد ما شالت منه.... خلا بيها.

أجابه المعلم بإقتضاب، ملوحاً بيده بإستنكار كمن لا يصدق ما يقوله.

- شكرا يا معلم... ورمضان كريم.

- الله أكرم يا بيه..

واتجـه ياسين الى أصـدقـانه الجـالسين حـول المنضـدة، والذين استغرقوا فى نوبة ضحك أعقبها محمد بقوله:

- إهمد شوية.. خلينا فى السحور.

وأطلق علّى صفيراً من فمـه، تلاحق عيناه سيارة فارهة سـوداء اللون، تدل حركة الصبيان و المعلم مينا بالإنتباه الى مكانة صاحبها، وأردف علّى قائلاً:

- لما نشوف القطط اللى نازلة من العربية.

- يا عم سيبك من القطط وخليك فى العربية نفسها.

أجابه محمود وهو متحير عن كيفية النظر الى الطعام و السيارة فى نفس الوقت.

- شو كل واحد بيفكر فى سوق عيشه.. اللى بده فى القطط... واللى بده فى السيارة..

عقّب راشد بتلك اللهجة الفلسطينية و اللقيمات الطائرة الى فمه فى مشهد ساخر يجمع الخمسة أصدقاء على مائدة السحور.

- واد يا جرجس ..أحلى ترابيزة تتنصب للدكتور فى جنب هادى..

زعق المعلم مينا فى أحد صبيانه الذى أسرع بتنفيذ أوامر معلمه، وقد هبط رجل وقور، ذو صلعةٍ عريضة إلا من شعيرات بيضاء قليلةٍ على جانبى رأسه. وقام أحد الصبيان بفتح الباب المجاور له، وهبطت سيدة فى أواخر العقد السادس من العمر، تدل علامات الصحة على ثراء فاحش، يحيط بوجهها حجاب أبيض، زادها سماحة وتقوى، وهبط مسرعاً من الباب الخلفى للسيارة فى اتجاه السيدة، شاب وفتاة قائلين:

– هاتى إيديك يا تنط..

– شكرا يا حبايبى .. آنا لسه شديدة ما تقلقوش.. إقلقوا على بابا.....

وضحك الأربعة وهى تشير الى زوجها الذى هبط من مقعد سيارته قائلاً:

– أنا لسه شباب يا ستى، الدور والباقى عليهم، مش عارفين يجيبولنا حفيد نلعب بيه شوية.

قالها الرجل الوقور فى دعابة، ولكنها لم تلاق استحسان تلك الصبية المتأبطة ذراع الشاب:

– إدينا فرصة يا أونكل... وإحنا هانجيبلك دستة أحفاد، إنت وتنط توتى.

أجابت الشابة بسرعة محاولة أن تخفى امتعاضها من تعليق حموها، واتجه الأربعة الى ركن قصى على الرصيف المواجه لمنضدة الشباب الذين أخذوا يتابعون هذا الحوار الخافت بإبتسامات خفية.

وأتى المعلم مينا بنفسه مرحباً لكى يلبى طلبات الدكتور وأسرته، وبعد أن دوّن ما طلبوه فى ورقة انصرف وهو يردد دعوات متتالية على مسامع الجميع. والتفتت الزوجة الى آخر الرصيف المواجه لها واصطدمت عيناها بتلك السيدة المسنة والتى تجلس على كرسى دون منضدة، ونظرات عينها شاردة تارة الى السماء، وتارة الى المارة من حولها، متمتمة بكلمات غير مسموعة، وانحدرت دمعة ساخنة على وجنتيها، سرعان ما جففتها بيدها دون أن يلحظ زوجها أو ابنه وزوجه شيئا.

– لونك إتغير ليه يا فتحية ؟ فيه حاجة؟... إنتى تعبانة ولا حاجة؟ لو تعبانة نقوم نمشى؟

قالها الدكتور بقلق شديد ينم عن حب ولهفة يفضحهما ما ظهر على وجهه.

– معلهش يا ولاد... أعكنن عليكوا شوية... ممكن نقوم نروح... أحسن أنا حاسه إني دايخة شوية.

– سلامتك يا تنط... أكيد الصيام هو اللى تعبك... يالا بينا... قالها ابن زوجها وهو يمسك بيد زوجة أبيه، أعقبتها زوجته قائلة:

– لازم نطمن عليكى يا تنط.

وأشار الدكتور للمعلم مينا، وأخرج ورقة مالية فئة المائة جنيه، وناولها المعلم وهم يستعدون للنهوض، مع تساؤلات المعلم مينا إن لم يعجبهم المكان... وأخرجت فتحية ورقة بمائة جنيه أخرى طالبة منه بأن يعطيها لتلك المرأة فى آخر الرصيف، وغادرت الأسرة تشيعهم دعوات المعلم مينا وصبيانه.

– يا ترى جو السحور فى الحسين يبقى عامل إزاى يا محمد؟

تساءل ياسين موجهاً نظره لأصدقائه المنهمكين فى مضغ الطعام، مع تعليقات متباينة لكل منهم، واندهاش من عدم زيارة السائل للحسين والأزهر وهو فى هذه السن الثلاثينية، وأجابه محمد بأن الوضع هناك أجمل من أن يوصف، واتفقا على قضاء يوم فى الحسين مع مجموعتهم عندما تسمح الظروف.

*****

– شق صيامك يا حاج سعد... ما ينفعش تقعد تلف على الصايمين

تخدم عليهم وهما بيفطروا وإنت على لحم بطنك... اقعد إفطر معانا يا راجل...

- أنا لو اقدر أخدم ضيوف الرحمن وألف عليهم طول السنة يا مولانا.... هو فى حد زيى... ساكن مع حبيب الرسول عليه الصلاة والسلام.

- بس ما ينفعش يا حاج سعد... إنت مش صغير... طول اليوم بتمسح وتنضف الجامع ودورات الميه ولا فنادق الخمس نجوم... وحتى ساعة السحور بتخدم...."ولبدنك عليك حقا"

- صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم... وحياة النبى يا مولانا أنا مبسوط كده، يمكن ربنا يتوب عليا.

وانحدرت دموع سعد على لحيته الكثيفة البيضاء، أعقبها بذكر الله والصلاة على الرسول بصوت مرتفع، وأخذ يردد الحاضرون وراءه بالابتهال والدعاء وهم جلوس على مائدة الرحمن فى المسجد الحسينى.

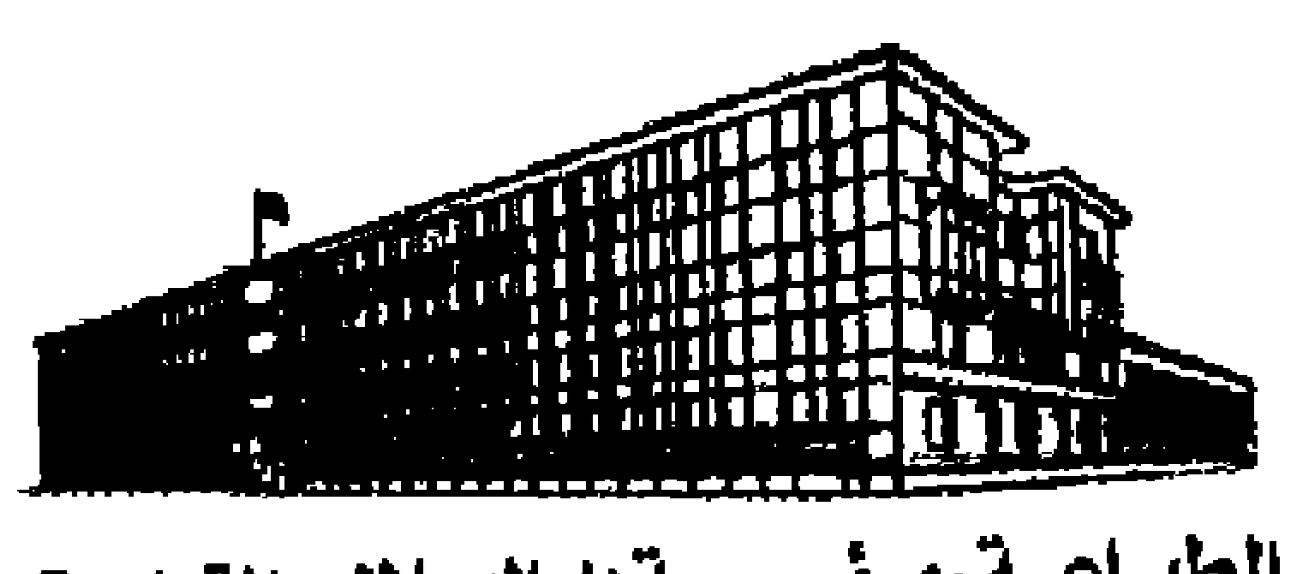
- اااااااااه بس لو تقولى يا حاج سعد... إنت بتسدد دين عليك من تلاتين سنة ولسه ماوفتهوش؟!!! ده إنت ماخرجتش من الجامع إلا لزيارة بيت الله.

نظر الحاج سعد الى الهلال الشامخ أعلى المئذنة، ثم طأطأ وجهه الى الأرض قائلا:

- للعارفين قلوبُ ترى ما لا يراه الناظرون.

تمت بحمد الله

رقم الإيداع: ٧٥٢٧ / ٢٠١١
الترقيم الدولى: 1 - 1480 - 07 - 977



الطباعة : مؤسسة دار الهلال - القاهرة

ابريل ٢٠١١

مصطفى موسى

وهكذا أجتمع الأربعة على صداقة شديدة تربطهم رغبة واحدة ..

المتعة التى يعيش الرجال والنساء طيلة حياتهم في البحث عنها .

تلك المتعة التى تجعل الزوج يهجر زوجه. ويدفع الزوجة الى مطارحة الغرام لفحل غريب ، أيا كان للوصول الي تلك الكيمياء التى تخدر الجسد بأقوى من نشوة الهيروين، وتحلق به إلى عالم السعادة والهدوء ،وانتظم الأربعة في تلك [illegible] أعطت للصبايا إحساس الأنوثة و[illegible] لذكر يلبى احتياجاتهن ، وتشبع [illegible] المسئولية والرجولة في تلك المر[illegible] الارتباط الضمني بينهم ، على [illegible] الشاكوش الي بسيونة ، التى كانت [illegible] مرح ، والثرثرة الممتعة التى كانت [illegible] في جلساتهم الممتدة ما بين الظهيرة حتي ما بعد العصر

بديعة .. بدون رخصة

Bibliotheca Alexandrina
1032130
737
516